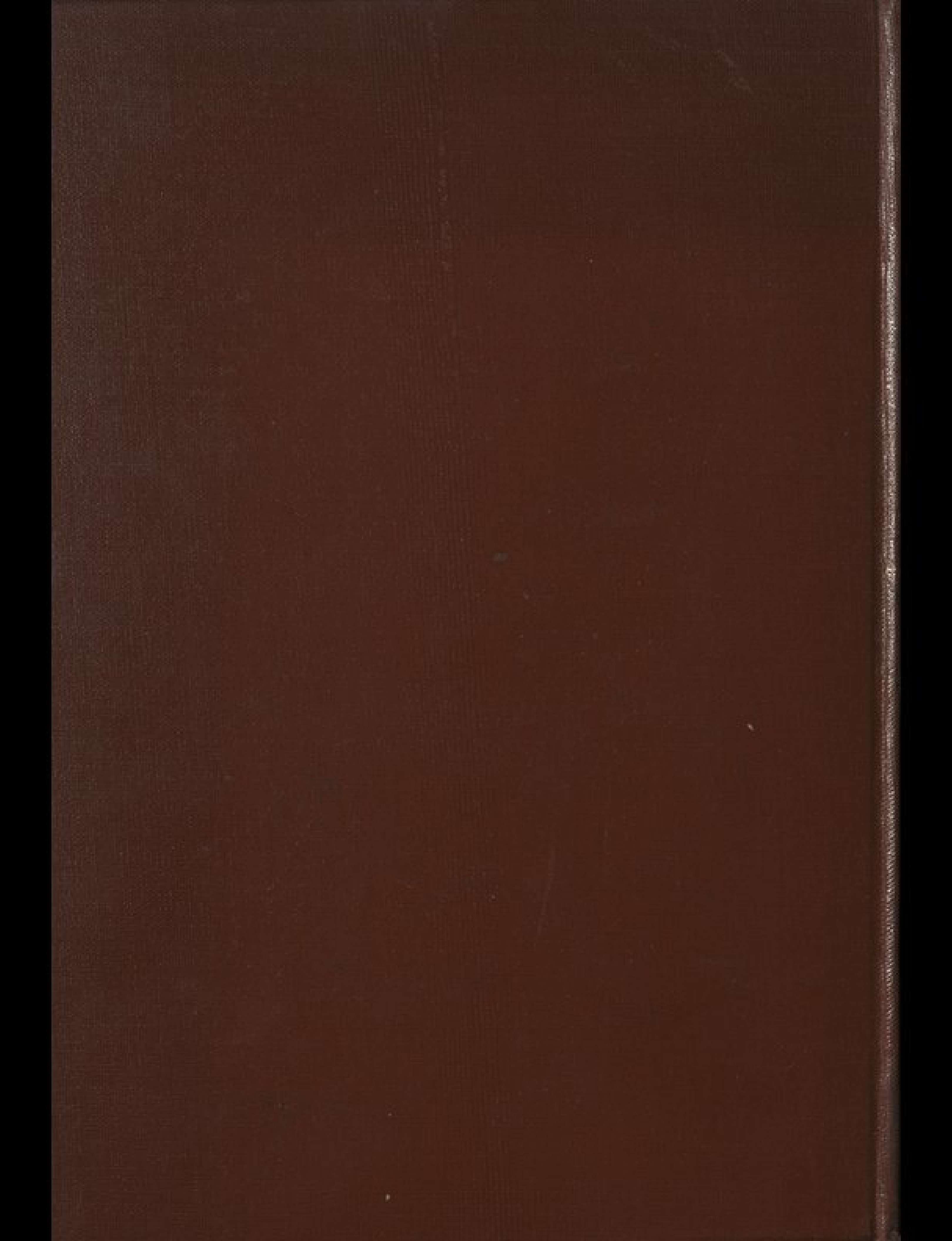


تقدمة

حضرة صاحب السعادة اسعد باسيلي باشا

الى ذكرى

الدكتور يعقوب صروف

هدية المقتطف السنوية

١٩٣٨

صقر قريش

دراسة لحياة الأمير عبد الرحمن الأول
الملقب بالداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس

علي أدهم

مطبعة المقتطف والمقطم

بمصر سنة ١٩٣٨

المدخل

عبد الرحمن الداخل — صقر قريش كما لقبهُ معاصره العظيم ابو جعفر المنصور — ومؤسس اكبر دولة اسلامية عرفتها اسبانيا احد ابطال التاريخ وشخصية حافلة جمة النواحي ، تسترعي النظر وتثير الاعجاب. وقد مرّ بهذه الدنيا كزائر غريب الشأن مقبل من العوالم الخفية يخرج من الفوضى نظاماً ويخلق من الضعف قوة . وقد حاولت في هذه الرسالة أن استقصي اخباره واكتب قصة حياته السرية العامرة ، ومهدت لذلك بإلمامة عن تاريخ الاندلس واحوالها قبل دخوله لبيان طبيعة الموقف الذي واجههُ عبد الرحمن عند مجيئه اليها، وقد اجتهدت ان لاتكون الشخوص البادية في هذه القصة العجيبة تماثيل جامدة منحوتة من صخرة الرذيلة ، او مقدودة من مرمر الفضيلة ، وعملت على ان أظهر فرديتهم في ظلالها المختلفة ونواحيها المتعددة وان أبين الدوافع التي كانت تضطرب في نفوسهم وتحركهم ، والاهداف التي كانوا يرمون اليها ، واستعنت على ذلك بذكر لمع من سيرهم وتلويحات من اخبارهم ، وحاولت ان أصوّر عبد الرحمن في شجاعته وقسوته ودهائه ورقته وحزمه ، وان أقف من مختلف الاشخاص موقف

الجيدة والتجرد لاعتقادي ان العبادة العمياء او الكراهة الصماء تشوه التصوير وتحيل الفهم ، ولم أبح لنفسي الاسترسال مع الخيال والتوهم لاني لا أرى ضرورة لان استغرق في الاحلام في وضح النهار ، وان كنت قد وسعت على نفسي بعض التوسعة في مواقف قليلة اقتضت ذلك ، ولم أعدُ في تفسير الاشخاص الحقائق التاريخية الواردة في مختلف المصادر التي رجعت اليها ، ولست أدعي بعد ذلك اني قد استوليت على الامد وانتهيت الى الحق التاريخي ، وعندي ان الحق التاريخي مثل الحكمة المنشودة لايسوغ لانسان راجح الفكر أن يدعي حيازتها وحاداه ان يشعر قلبه حبها والاخلاص في طلبها ، وغاية ما أقول انني حرصت على الحق التاريخي وحاولت ان اسمو بهِ فوق كل اعتبار وان كنت لا أزعم اني كشفت سره وملكت عنانه وليس من المستبعد — بل المأمول والمرقوب — ان يظهر ما قد يستجد من البحوث التاريخية عبد الرحمن في صورة مخالفة للصورة التي حاولت رسمها له ، على اني اعتقد ان مجهودي القليل ككل مجهود في الحياة رائده حب الحقيقة لا يذهب سدًى وانما يكون لبنة في البناء الجديد ، وخطوة الى تفسير آخر ، ولا اقول التفسير النهائي الاخير فما احسب حياة الانسان القصيرة في هذه الدنيا الفانية تجيز لنا الامل في الوصول الى الحقائق النهائية ، وارجو ان يجد القراء متعة فكرية ورياضة اخلاقية في تتبع روائع اخبار عبد الرحمن وغرائب همته . ومن يدري فقد تكون حياتنا العقلية والاخلاقية التي يزدهينا في كثير من الاحيان ما بها من قوة وخصب لا تزال تعاني عقابيل ما انتابها من العلل في سالف الزمان، وقد يكون بها بعض الحاجة الى قضاء ايام في استنشاق هواء الربى الخضر والجبال الشم والتدفؤ في اضواء الشموس الساطعة والحرارة اللافحة .

مِعْيارُ البُطُوْلَة

التَرقي في الطبيعة وفي التاريخ — أثر
الجماعة والافراد في الحركة التاريخية —
خضوع العظماء لعاطفة رئيسية

اذا تأملنا تاريخ الانسانية في هذه الارض — زورق الحياة الصغير الذي ينساب بنا في عيلم من اللانهائيات جياش العباب يهول صمته ولا يسبر عمقه — وجدنا ان الحركة التاريخية السائرة من انبلاج فجر الحضارة تتجه الى غاية مجهولة . وقد تكون تلك الغاية من فوق متناول الافهام ومن وراء خطرات الاوهام. ولكننا نحس وجودها ونستشف أثرها من وراء فوضى الحوادث واختلاط الظواهر ، وحول اثبات تلك الغاية وتلمسها واستيضاحها او انكارها وطمس معالمها تدور أرحاء معارك فكرية بين المدارس المختلفة من المفكرين . هذه الغاية ملحوظة الاثر في الطبيعة فقد لحظ فلاسفة اليونان أن هناك ترقياً وتسلسلاً في الطبيعة، وتوفر على شرح ذلك واثباته دارون ومن جرى على سمته من علماء العصر الحديث . وهذه الغاية ايضاً ظاهرة السمة في الحركة التاريخية ينم عنها ذلك التدرج المستمر والانتقال الدائم في النظم والاوضاع الاجتماعية، وقد تصدى كثيرون من أعلام الفلاسفة لاثبات هذا الترقي الملموح في التاريخ وفي طليعتهم « فيكو » و « هردر » و « هجل » ، والحق ان ترقي الانسانية من نظام الفردية الى نظام الاسرة فالقبيلة فالملكية ثم ظهور السلطة الدينية ومجيء عهد القوات

الكبرى في العصور الحديثة يدل على ان هناك تدرجاً دائماً وراء تلك الاستحالات في الاوضاع الاجتماعية وان الحضارة تتجهُ الى غاية تشترك الامم المختلفة في سوق جموع الانسانية اليها

واذا كانت الافكار هي المسيطرة في الدنيا وهي اللب والصميم لكل تلك التغيرات الخارجية وهذا ما يدل عليه الاستقراء التاريخي فنحن خلفاء ان نستخلص من ذلك ان كل دور من هذه الادوار التي مرّت بها الانسانية كان نتيجة لظهور فكرة العصر او روح العصر وهذه « الفكرة » تظهر في مستهل أمرها غامضة ملتبسة يحفها ضباب من الغموض وتفر من المنطق والتحليل ، ثم تنجلي عنها سحب الغموض وتزول شيئاً فشيئاً حتى تظهر الفكرة جلية واضحة ثم يدركها العفاء والبلى فتذبل وتذوى وتقوم على آثارها فكرة جديدة . فتاريخ الانسانية اذن سلسلة من الافكار التي توالت على الدنيا وارتسمت في صفحة الحياة البشرية ، وأكثر معارك التاريخ وأيامه كانت لتغليب فكرة من هذه الافكار على الاخرى

وتتخذ الفكرة لظهورها طريقين ، أحدهما الجماعات والآخر الافراد أبطال التاريخ ، وهي تظهر في الجماعات بشكل دافع يستحثهم على الهجرة والانتقال مثل رحلات قبائل البدو الساميّة من جوف شبه جزيرة العرب الى حوض دجلة والفرات وظهور حضارة بابل وأشور نتيجة لذلك ، ومثل الغزوات الصليبية ومثل هجرة قبائل المغول وتأثيرها العظيم في التاريخ. والذي يسوق الجماعات في تلك الاحوال هو الغريزة التاريخية التي تدفعهم من حيث لا يشعرون وهم يخالون أنفسهم متجهين الى غرضهم الخاص المعين ، وغرضهم الخاص هذا في الاعم الاغلب قليل الشأن ضئيل الى جانب الغرض الكبير الذي ترمي اليه الغريزة التاريخية وهذا الغرض لا ينكشف خفيه الاّ بعد زمن

والطريق الآخر لظهور الفكرة هو الايحاء الى الافراد الذين نسميهم أبطال التاريخ واتخاذهم روّاداً للفكرة وطلائع لها ، وهم أشبه بآلات في يد الفكرة ، يعملون على تحقيقها من خلال سعيهم الى مجدهم الشخصي ، وهم يؤدون للانسانية خدمات من وراء آفاق تفكيرهم تسوقهم الى النهوض بها الغريزة التاريخية التي تستغل قوة طموحهم لبلوغ مآربها ودراك غايتها كما تنتفع غريزة حفظ النوع من اذكاء عاطفة الحب وتتخذها وسيلة من وسائلها ، فالغريزة التاريخية تبتعث طموح العظيم لتحقيق الفكرة ، والغريزة النوعية تهيج عاطفة الحب لابقاء النوع ، فالعظيم والمحب كلاهما مخدوع مسوق الى تنفيذ غايات لا تبرز في ساحة تفكيره . كان الاسكندر مثلاً شغوفاً بالفتح وتدويخ البلاد فجاء من أثر فتحه تزاوج الحضارة اليونانية بالحضارة الفارسية وغيرها من الحضارات الشرقية ، وأراد قيصر ان يظهر براعته الحربية في ميدان من ميادين القتال تثبيتاً لمكانته وتحقيقاً لطموحه فأخذ يقحم على الغال مدنهم ولم يكن يدرك التأثيرات البعيدة لهذه الفتوحات وانهُ سيبدأ بها تاريخ اوربا الحديث ، ونابليون لما ملأ العالم حروباً لمجده الشخصي كان اكبر موقظ ومحرّك لمسألة القوميات ، وكذلك عبد الرحمن الداخل لما كان يجاهد لتسنم عرش الاندلس لم يكن يعلم انهُ سيكون احد المؤتمنين على ميراث الحضارة وانهُ لولا تلك الاسرة التي أسسها لكانت الدنيا اليوم غير ما هي عليه وان ارض الاندلس ستلقى على يد خلفائه أسعد أيامها وأزهى حضارتها

فقياس عظمة هؤلاء الرجال هو انهم أدوا مطالب عصرهم وحققوا الفكرة التي كانت تضطرب في احشاء الزمن ، وهم يمتازون بخضوعهم لعاطفة مستعلية عليهم غلاّبة على نفوسهم ، وحول القوة التي تفيضها هذه العاطفة وتصبها على الفكرة الهابطة على العصر تتركز اكثر الحركات التاريخية ، وتأخذ هذه العاطفة عليهم مسالك نفوسهم

فلا يستوطئون راحة ولا ينعمون بسعادة وهي السر في الجهود الجبارة التي يبذلونها ونراها نحن من فوق طاقة البشر وخارجة عن دائرة الامكان

فعبد الرحمن الداخل اذن من العظماء لانهُ حقق فكرة عصره وقام بأكبر مطالب زمنهِ وكان يخضع لعاطفة قوية مسلطة على الغرض الذي يتطلع اليهِ العصر ، وكانت هذه العاطفة تملأ شغاف نفسه فلم تصرفهُ عن تأدية مطلبها الاهواء والشهوات بل اتصلت في طريقه كما يندفع السيل الى الحدور ، ومثل هذه القوة الفياضة العارمة وهي في طريقها الى مآربها الكبرى قد تحطم الكثير من اشجار المبادىء السامية التي استظلت بدوالها النفوس الكريمة الصادقة وتسحق ازاهير المشاعر الجميلة الرقيقة ، ولا ينبغي ان يخدعنا عن هذه الناحية المظلمة والجانب الضعيف في حياة ابطال التاريخ تغني الشعراء بعظمتهم في ألفاظهم الحلوة السحرية الرقراقة الفضية وما يخلعونه عليهم من سرابيل الفخار وما يحيطونهم بهِ من هالات الخيال ولا تمحك المؤرخين السياسيين الذين يحاولون تبرير كل عمل وتسويغ كل خطة ويقولون ان العظمة اكبر من المبادىء والاخلاق ، ومن دواعي اعجابنا بهؤلاء العظماء اضطلاعهم بأعباء عصورهم ومما يثير حبنا لهم وعطفنا عليهم ان نهاية حياة اكثرهم كانت أشبه بالمأساة ، فان الفكرة تنبذهم بعد تحقيقها فيموت أحدهم في روعة شبابه بأطلال بابل مثل الاسكندر او يقتل في روما مثل قيصر او يقذف بهِ الى صخور سنت هيلانة مثل نابليون او يبقى ليهجره أصدقاؤه وتتقطع الاسباب بينهُ وبين أنصاره وتحفهُ طائفة من الخواطر السوداء والافكار المزعجة حتى ينشب فيهِ مخلب الموت مثل عبد الرحمن الداخل .

الفردوس والجحيم

نهضة الاسلام — تقدم الفتوحات الاسلامية — اختلال احوال اسبانيا عند الفتح الاسلامي — اسباب تأصل هذا الاختلال — التفاوت بين حياة الاشراف وحياة الطبقات الفقيرة — لذريق وفلورندا — الكونت يوليان وفتح الاندلس — دخول موسى بن نصير واتمامه الفتح

من حين الى حين ينبغ في مختلف الامم أفراد موهوبون يستطيعون ان يرتفعوا فوق مستوى الانسانية المعهود وينظروا الى الكون غير المحدود نظرة شاملة مستوعبة وكأنما وهم في أخذة الاعجاب ونشوة الاستغراق ينكشف لبصيرتهم النافذة وخيالهم المشبوب خفايا الطبيعة المستورة وأسرارها الجليلة ، وتحدث المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية عندما يكون عصرهم متأهباً لتلقي رسالتهم واستلهام وحيهم وادراك تفسيرهم الجديد للحياة الانسانية واقامة صرح المجتمع على ركائزه ، وقد كانت نهضة الاسلام من تلك المواقف الفاصلة في التاريخ فقد جاءت مبادئه ملائمة لحاجات عصره متجاوبة مع النزعات الجائشة في نفوس أهله ومناسبة لتكوين العرب العقلي وملكاتهم الوراثية ونزعاتهم الاخلاقية، ولقد أثار النبي محمد قوة العرب الكامنة وحرّك عواطفهم وأحدث بينهم ثورة انتقال كبير وأبرزهم على مسرح التاريخ العالمي، وحركة الاسلام من الحركات القلائل التي أثارت القلب البشري من أعماقه وحرّكت الافكار من أغوارها ، وتعاليمه من القوة والنبل والصفاء بحيث سمت بنفوس العرب العصية الجامحة فوق المنازع الشخصية والاغراض الزائلة وأخرجتهم من دائرة الاثرة المحدودة والعصبية الضيقة فجادوا بالنفس

وارتخصوا الدماء في سبيل نشر مبادىء الاسلام وتغليب آدابه ، وتدفقت جموعهم على العالم كالسيل الجارف تكتسح غوامر موجه ودوافع تياره كل شيء ولا يثبت أمامها شيء ، ففتحوا فارس والشام ومصر وشمال افريقية حتى أعمدة هرقل وانتظم الاسلام العالم من نهر سيحون في آسيا الوسطى الى سواحل الاطلانطيقي

وكما أوقف تقدمهم في آسيا الصغرى امبراطور الاغريق ، فكذلك في آخر حدود البحر المتوسط امتنع عليهم أحد عماله ، فقد سالت جيوشهم على شمال افريقية وهزموا البربر وأخضعوهم لسلطانهم حتى صدَّهم حصن سبتة ، وكانت تابعة لامبراطور الروم كسائر جنوب البحر المتوسط ولكن بعدها الشاسع عن القسطنطينية جعل حاكمها يتجه الى طليطلة لطلب المساعدة والتماس الحماية مع احتفاظهِ بسيادة الامبراطور الاسمية ولم تضن عليه أسبانيا بالمساعدة والتأييد لاهمية موقع سبتة من الوجهة الحربية فهي أول حاجز قوي يصد المغيرين عن أرضها

وكانت اسبانيا في ذلك الوقت مختلة الاحوال مضطربة الاوضاع قد تطاول على اهلها الجور وتمادى بهم الشقاء ، وكانت مرافقهم مهملة وحقوقهم مهدورة ، وكان الفساد متغلغلاً في سياسة الدولة وكان الداء الذي يسري في اوصالها متشعب الاسباب بعيد الاعراق . وقد بسط الرومان سلطانهم على اسبانيا سنة ١٣٤ قبل الميلاد وظلت خاضعة لهم الى اوائل القرن الخامس الميلادي ، وفي عصر القياصرة المتأخرين كان البناء الاجتماعي غير مستقر الدعائم وكان نظام الحكومة فاسداً مسرفاً في الفساد ، كانت هناك أقلية من الاثرياء المستأثرين بالامتيازات والمنافع والمناصب الكبيرة وأكثرية مهملة مطرحة تعاني الفاقة والحرمان ونضوب الرزق وتسام الذل والهوان ، وكان عبء الضرائب واقعاً على كاهل الاوساط ، وكان أشراف الرومان وقد صدئت سيوفهم في

اغمادها وكلت سواعدهم عن حملها يعيشون عيشة مترفة ناعمة مخلدين الى الدعة متهالكين على اللذة في قصور فخمة شامخة الذرى تجري الى جانبها الانهار هادئة متئدة الخطو تنعكس في صفحاتها الصافية ظلال اعراش الكروم واحراج الزيتون، وكانوا يزجون الوقت في المقامرة والاستحمام والمطالعة وركوب الخيل ويقيمون الحفلات الزاهرة في المحاريب الفيحاء المزدانة بالنجود الموشاة وفاخر الطنافس حيث يجلس المدعوون على الارائك . وقد صفت الموائد وفوقها الازهار المنضدة والصحاف الحافلة بألوان الاطعمة الشهية وغريض اللحوم والاباريق المترعة بمعتق الخمور فيتملأون من الطعام ويتعببون الشراب ويستافون عبق الازهار ويتطارحون خلال ذلك مرتجل الاشعار ويتجاذبون مونق الاحاديث او يتسلون بعزف الموسيقى ويمتعون الطرف برؤية أسراب القيان الراقصات بين ترجيع الاوتار ومرسل الغناء. وعلى هذا النمط كان يعيش أشراف الرومان ويفتنون في ضروب المتعة وألوان اللهو ، لا يلبون داعي الجد ولا يستبقون الى غاية نبيلة ولا يلهب شعورهم ويقض مضاجعهم الوثيرة ما يقاسيه الشعب من انتكاس الاحوال ومبرح الآلام ، وكان بعض الافراد من طبقة العبيد والمزارعين وقد شفهم الظلم واستحكم في نفوسهم اليأس يدفعهم سرف الغيظ وكمين الحقد الى اللواذ بالغابات وتكوين العصابات والمناسر للسطو والقتل واحداث المثلات بسادتهم الاغنياء ، وكانت هذه العصابات من آونة لاخرى تهدد المدن تهديداً خطيراً وتهز المجتمع من اساسه هزاً عنيفاً

ولما زحفت قبائل البرابرة على اسبانيا في اوائل القرن الخامس وجدت الطريق سهلاً معبداً ولم تلق مقاومة ، وكانت الطبقة المستمتعة بالامتيازات هي الطبقة الوحيدة الحريصة على دوام الحال ودفع الغزو ولكنها كانت ساقطة الهمة ناضبة الحيوية ،

ولم يكن من المنظور ان يناصر افرادها الشعب في الدفاع عن حوزة البلاد وقد أغفلوا مرافقه وأهملوا اصلاح شؤونه وناموا ملء جفونهم عما يقاسيه من حيف وما يعانيه من مكاره

وكان الشعب وقد يئس من الخير والاصلاح لايبالي بعد ذلك أحكمهُ الرومان أم ساس أموره البرابرة، ولم تثبت مدينة واحدة للحصار ، بل كانت تبادر المدن جميعها الى فتح ابوابها بلا مقاومة ، وكانت هذه القبائل العادية تسرف في النهب والسلب والتخريب وتقتصد في القتل وسفك الدماء لانها وجدت قوماً مستسلمين لا يعلنون حرباً ولا يشهرون سيفاً ولا يخشى لهم بأس ولا صولة

وفي سنة ٤٢٩ أجلت قبائل الآلان قبائل الوندال عن اسبانيا وأرغموهم على شد الرحال الى افريقية ، ولكن بقي في أسبانيا قبائل السوابي وهم من أشد القبائل الالمانية قسوة وفظاعة ، ثم جاءت قبائل القوط وهزموا السوابي في معركة دامية عند ضفاف نهر اورفيجو واستعبدوا الاهالي وعسفوهم عسفاً شديداً وانتهكوا حرمات الكنائس واتخذوها مرابط لخيولهم ، وأسس القوط في أسبانيا دولة قاعدتها طليطلة

وتأثر القوط الغربيون بعد دخولهم في المسيحية بالنحلة الاريوسية . وفي سنة ٥٨٧ نبذوا تلك النحلة ومالوا الى الكثلكة فقويت مكانة رجال الدين واشتدّ ساعدهم وأصبح لهم في الدولة نفوذ بعيد وسلطة واسعة ، وأمل الشعب من وراء ذلك خيراً لان رجال الدين كانوا في عهد ازدهار النحلة الاريوسية يتظاهرون بالعطف على الشعب ويواسون الفقراء وأشاعوا أنهم سيعملون على الغاء العبودية والرق ، ولكنهم لما اصبحوا أقوياء وهدأت شجونهم تناسوا هذه المبادىء السامية وأعلنوا ان وقت التحرير لم يحن بعد وانهُ ربما لايحين الاَّ بعد قرون ، وكانت الحالة الاجتماعية في جملتها أسوأ

مما كانت عليه في عهد الرومان اذ أصبح لا يباح لافراد طبقة المزارعين والعبيد الزواج الا بأمر سادتهم الاشراف ومن أقدم منهم على مخالفة ذلك اعتبر زواجه باطلاً وطلق من زوجته ، وكانت الطبقة الوسطى تحمل على كاهلها الضرائب كما كانت في العهد السابق فأصابها الافلاس وعمرها الفقر . وكانت حياة المزارعين والعبيد مجدبة شديدة المرارة وكانوا يعيشون مكسوري الفؤاد مهيضي الجناح ولم يكن يفتر لهم أمل قبل حلوكة الموت وبطشة الفناء وكأنما عناهم شوقي بقوله

يعانون في الاكواخ ظلماً وظلمةً ولا يملكون البث وهو يسير

ورجال الدين أنفسهم لما تضخمت ثرواتهم واتسعت أملاكهم أبدوا القوط في سياستهم ولم يحاولوا ترقيق قلوبهم وتبصيرهم بواجباتهم نحو الرعية المسلوبة الحق المتمرغة في الذل ، وكان القوط كلما قارفوا جريمة ركنوا الى الصلاة ندماً عليها . ثم يعاودون الاجرام بنفس مطمئنة ، وكانوا في اقبالهم على الملذات يشبهون اشراف الرومان والمنهج الذي نهجوه من المسيحية لم يسم بأخلاقهم ولم يهذب طباعهم ولم يوقظ ضمائرهم اللاهية ، وازدادت حالة الطبقة الوسطى سوءاً وانتزعوا من أفرادها حق التصرف في بيع املاكهم ، واشتدّ اضطهاد اليهود وبدأت حركة الاضطهاد المنظم سنة ٦١٦ واحتمل اليهود أقسى ضروب التنكيل صامتين صابرين ثمانين عاماً ولما غاض اصطبارهم اتفقوا مع أبناء ملتهم في افريقية على القيام بثورة وكان الكثيرون من البربر قد تهوّدوا لان بعض يهود أسبانيا نكلوا عن احتمال النكبات المترادفة التي حلّت بهم وآثروا الهجرة الى افريقية وأذاعوا هناك دينهم ، وفطنت الحكومة الى تدبير الثورة وعاقبت المتآمرين عقاباً صارماً وصادرت أملاكهم وقسمتها على المسيحيين وأمعنت في ظلمهم وإذلالهم وكانت الطبقة الوسطى التي استنزفت ثروتها الضرائب وطبقة المزارعين الاشقياء

وطبقة اليهود المضطهدين تتلهف على قلب الحالة التعسة وتحلم بالخلاص من الفوضى الضاربة ومن سوء حظ الطبقة الممتازة انها لم يكن لها قوة مدخرة للذود عن كيانها سوى هؤلاء المظلومين المضطهدين

وفي اوائل القرن الثامن الميلادي لما وصل المشارقة الى سواحل الاطلانطيقي وأشرفوا من مضيق «هرقل» على ذلك الاقليم المشرق الضاحي كان قد مضى اكثر من قرنين على حكم القوط لاسبانيا ، وكان الجالس على عرش اسبانيا في ذلك الوقت لذريق وقد بدأ حياته اميراً هماماً صالحاً وعضده فريق من الرومان الذين استوطنوا اسبانيا ورجال الكنيسة الكاثوليكية ونجح في استمالة بعض كبار بلاط الملك غيطشة واستطاع بذلك ان يستخلص العرش لنفسه — ومن المحتمل ان يكون قد سعى في خلع غيطشة وقتله فان التاريخ ليس صريحاً في ذلك — وتقلد الحكم سنة ٧٠٩ م . ولما اطمأن الى مكانته واستوثق من نفوذه تكشفت حقيقة اخلاقه وظهر مضمر نياته ومال عن الجادة وأخذته النخوة وانغمس في الشهوة ، وكان من المتبع ان يرسل الاشراف اولادهم الى البلاط لتكمل تربيتهم وأرسل الكونت يوليان حاكم سبته الذي زاد عن حصونها ورد هجمات موسى بن نصير، ابنته فلورندا مع بنات الاشراف الى البلاط في طليطلة وكانت وفيرة الجمال فاستهوى حسنها لاذريق ولما لم يجد معها التقرب والمحاسنة فقد اضطر الى اغتصابها مخالفاً الوصية التي تجعله حامياً لها

وكان مما يزيد فعلته نكراً وشناعة وهدماً للشرف ان امرأة يوليان كانت بنت غيطشة وبذلك أهين الدم القوطي الملكي في شخص فلورندا . وأخبرت فلورندا اباها بما اصابها فأضمر الشر للذريق ونوى ان يحفر تحت قدميه ويزيل ملكه ولم تكن العلاقة بينهما قبل ذلك حسنة لقرابة يوليان من الملك السابق ، وكان يوليان قد نجح في

صد تيار العرب ولـكنهُ صمم بعد ذلك على ألاَّ يدافع عن الرجل الذي خان عرضه ودنس شرفه وهرول الى بلاط لذريق في زمهرير الشتاء غير مبالٍ بنفحات القرّ والرغبة في الانتقام حشو نفسه وأخفى شعوره عن لذريق وادعى ان زوجته مريضة وانها تريد رؤية ابنتها وظنَّ الملك ان الامر لم يبلغهُ فأخذ يعلي مكانته ويتحفى به ويشاوره في خفايا السياسة وجليل الشؤون ويعمل برأيه ، وخرج يوليان وابنته من طليطلة وأوصاه الملك وهو يودعهُ ان يبعث اليه بعض الصقور لحاجته اليها للصيد فأجابهُ يوليان بأنهُ سيبعث اليه صقوراً لا عهد له بمثلها — وكان يقصد بذلك العرب — وعاد الى سبتة وسعى الى المثول بين يدي موسى بن نصير حاكم افريقية الذي طالما حاربه وثبت لحملاته واحتفى موسى بمقدمه لما عهده فيه من الشجاعة واليقظة وأخبر موسى ان لا حرب بينهما ثم اخذ يصف له الاندلس وسماءها الصافية وشمسها الزاهية وأنهارها الجارية ورياضها الغناء ومناهلها العذبة وملأ اذنه بالحديث عن مواردها الفياضة وخيراتها الغزيرة وكنوزها العامرة وحواضرها الزاهرة وذكر له التياث احوالها السياسية وما يعانيه اهلها من فوادح الظلم وتباريح الفاقة وزين له الاستيلاء عليها وتعهد له بأن يدله على العورات ويتجسس له الاخبار ويعيره السفن وكان موسى رجلاً صارم العزم مترامي الامل فتعلقت اطماعه بفتح الاندلس ولـكنهُ كان حذراً فارتأى ان يراسل الخليفة في دمشق يسأله رأيه ثم ارسل طريفاً يرتاد الشواطىء وارسل بعد ذلك طارق بن زياد ولم يكد يتقدم طارق حتى أقبل اليهِ لذريق بمجر جموعه ، وكان اراد ان يترضى اولاد غيطشة وان يستل حقدهم عليهِ فدعاهم الى الكفاح معهُ فأتمروا بهِ وبيتوا لهُ الشر والتقى الجيشان بوادي بكة من شدونة ورغم ان موسى كان قد أمدَّ طارقاً بخمسة آلاف مقاتل كان عدد الجيش القوطي ستة

امثال جيش طارق ، وقد انتصر طارق انتصاراً باهراً وكان من عوامل انتصاره انحياز اقارب غيطشة الى جانب العرب عند ما حمي وطيس الحرب ولم يخطر ببالهم أنهم بهذه الفعلة قد خانوا وطنهم لانهم كانوا يعتقدون ان حملة العرب غرضها النهب والسلب وانهم اذا امتلأت ايديهم بالغنائم عادوا ادراجهم ويتمكن حزب غيطشة بذلك من استعادة نفوذه وتنصيب احد ابنائه وهكذا أعمتهم الانانية القصيرة النظر عن ادراك ما ينطوي عليهِ عملهم من الخيانة ، وحضر بعد ذلك موسى بن نصير الى اسبانيا واشترك مع طارق في اتمام الفتح وتثبيت اقدام العرب في اسبانيا وتقدم موسى الى جبال البرانس واطلَّ منها وفكر في غزو اوربا ولكن بينما كانت نفسه تجيش بهذه الافكار أتاه كتاب الخليفة الوليد يأمره بالقدوم عليهِ لما بلغهُ من خلافهِ مع طارق وسوء معاملتهِ له

افتقاد البطل

الاسبانيون وعدالة مبادىء الاسلام — قتل عبد العزيز بن موسى — امراء الاندلس والتنافس بين قيس واليمنية — سياسة هشام نحو البربر — استعماله عبيد الله بن الحبحاب على افريقية — ثورة البربر في افريقية وامتدادها الى الاندلس — كلثوم بن عياض وابن اخيه بلج — ولاية عبد الملك بن قطن — اضطرار عبد الملك الى الاستنجاد ببلج ورجاله — اخماد ثورة البربر بالاندلس — الخلاف بين عبد الملك بن قطن واصحاب بلج — ولاية ثعلبة ابن سلامة — ولاية ابي الخطار — الخلاف بينه وبين الصميل بن حاتم — ولاية سلامة بن ثوابة — ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري — موقعة شقندة — حصار الصميل في سرقسطة

بعد ان قرت ثورة الفتح وسكنت نفرة النفوس وجد الاسبانيون انهم يتفيأون ظل حكومة ابر بهم وارحم من سائر الحكومات السابقة ، فقد انتشلتهم من الهوان وأقالت عثرتهم ونسخت ظلمات العصر الغارط ونظّمت شؤونهم الادارية وأباحت لهم اتباع قوانينهم والاستمساك بتقاليدهم واختيار قضاتهم وأقامت لهم حكاماً من جنسهم كان يوكل اليهم جمع الضرائب وحفظت لهم جميع املاكهم وأذنت لهم بحق التصرف فيها من بيع او شراء وكان القوط قد استلبوا منهم هذا الحق ، وكان عليهم ان يدفعوا ضريبة الاعناق السنوية وكانت تقسط لهم على اثني عشر قسطاً تيسيراً لهم في الدفع واعفي من دفعها النساء والكهنة والضعفاء والاطفال وكانت هذه الضريبة تسقط عمن يسلم ، اما الخراج وهو عشرون بالمائة من محصولات الارضين فقد كان واجباً دفعه على المسلمين والمسيحيين وقد فرضهُ المسلمون على جميع العناصر والطبقات بالعدل والمساواة واخذ العرب بناصر الطبقات المستعبدة وهم سواد الشعب وقضى الفتح على امتيازات الاشراف واستبداد الكنيسة لان الحكومة وضعت يدها على ما كان لها من الاقطاعات الكبيرة وفرّقتها بين اناس عديدين

ولم يكن هناك اثر للاضطهاد الديني لسماحة مبادىء الاسلام من ناحية ولان ضريبة الاعناق من ناحية اخرى كانت نافعة للخزينة ولذا كان الحكام الذين يقتصرون على النظر الى الامور من الجانب الاقتصادي غير حريصين على ادخالهم في الاسلام ، وقد وجد الكثيرون من ارقاء الاسبان السبيل الى الحرية ممهداً باتباعهم الاسلام ، ودخل كثيرون من السراة في الاسلام فريق منهم اعجاباً ببساطته ونبل تعاليمه وفريق آخر فراراً من الجزية ، والواقع ان المسيحية لم تكن قد تأصلت في نفوس الاسبانيين عند دخول العرب فقد كانت الوثنية لا تزال تناهضها ببعض المناهضة وكان ابناء الرومان تغلب عليهم نزعة الشك وكان ابناء القوط قليلي العناية بالشعائر الدينية وكان رجال الدين مصروفي الهمة الى احتجان الاموال واضطهاد اليهود فلم يتسع لهم الوقت لغرس مبادىء الدين

ولما اجاب موسى بن نصير دعوة الخليفة وتجهز للرحيل الى الشام اقام ابنهُ عبد العزيز حاكماً على اسبانيا فجعل دار حكمه مدينة اشبيلية وتزوج ارملة لذريق ورأى خصومه ان هذا الزواج قد غير اخلاقه وجعله يعامل النصارى في رفق ولين فنقموا عليه مغالاته في استرضائهم وفرط عنايته بمصالحهم وبالغوا في التنديد بهِ وافتروا عليه المثالب وأبلغوها الخليفة سليمان بن عبد الملك فدفعهُ سخطه على موسى الى ان يتخذ رسالتهم حجة للاغراء بقتله فقتل وهو يصلي في المسجد صلاة الصبح

وتوالت بعده الحكام على الاندلس ، وكان حاكم افريقية في اغلب الاوقات هو الذي يختار حاكم الاندلس ، وكان اكثر الحكام ينتسبون الى احدى الشعبتين الكبيرتين من العرب وهما قيس من المضرية واليمانية ، ولا مفر لنا من ان نلاحظ ان العرب الذين فتحوا العالم ودوّخوا الجيوش لم يكونوا شعباً قد تمّ امتزاجه وكملت

وحدته وانسجمت اجزاؤه وتلافت اهواؤه ، وقد استدعى اظهارهم بمظهر الامة المتحدة الغاية مجهوداً كبيراً من النبيّ وسياسة حازمة مترددة بين اللين والقسوة من خلفائه ، وقد كانت العرب مكونة من قبائل وبطون وكان بينها في الجاهلية حروب وترات دامت اجيالاً متعاقبة ، ولم تخمد في نفوسهم روح المنافسة القبلية عند دخولهم في الاسلام وظلت مشتعلة اللهب تعمل عملها وراء مبادىء الاسلام السمحة ، ولو ان حكومة الاسلام ظلت محصورة في بلاد العرب لعصف بها الخلاف ومزقتها العصبيات ولكن انهماكهم في الفتوحات جعلهم يتناسون الى حين قديم احقادهم وشديد عصبيتهم وانسلخوا انسلاخاً مؤقتاً من روح القبيلة وكان يحدوهم على الفتح الامل في الجنة وكذلك الطمع في كنوز كسرى وملك قيصر ، ولما وقفت حركة الفتح واستتبت احوالهم في البلاد التي فتحوها ثارت الاحقاد من كوامنها وأتلعت العصبية جيدها

وكان هناك البربر وكان لهم النصيب الاوفر في فتح الاندلس مع طارق وهم قوم اشداء قاوموا العرب مقاومة عنيفة وثبتوا لهم طويلا ولقي العرب منهم اهوالاً لم يتعرضوا لامثالها عندما قاومتهم جيوش الروم وجموع الاكاسرة ، وقد ألقوا السلاح في النهاية ولكن على شريطة ان يعاملوا معاملة الانداد والاخوان ، وكانوا يشبهون العرب في بساطة الحياة وصلابة الاخلاق وقد ألفوا الاستقلال وتعودوا الحرية لان سلطة روما كانت مقصورة على الشواطىء وكان نظامهم الاجتماعي يشبه نظام العرب وهو ديمقراطية يحد من قوتها ويهذب من حواشيها نفوذ الاسر الارستقراطية والويل لمن كان يمس كبرياءهم ويتحدى شعورهم وقد سمحوا للحاكم العربي ان يقيم بلاطه قرب الساحل وتمسكوا بحكم قبائلهم بين أنفسهم

ولما ولي الخلافة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ . وكان يميل الى قيس من المضرية

اختار يزيد بن أبي مسلم حاكماً لافريقية ، وكان يزيد كاتباً للحجاج الثقفي وقد تخرَّج في مدرسته السياسية وحذق أساليبه في الحكم فأراد ان يسير فيهم سيرة الحجاج في أهل الاسلام الذين سكنوا الامصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة وأسلم بالعراق فقد أمر الحجاج بردهم الى قراهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار وحاول يزيد ان يفعل بأهل سواد افريقية ذلك فكلموه وحذروه مغبة عمله ولكنهُ عزم على ما عزم عليهِ فلما تحققوا ذلك أجمع رأيهم على قتله فوثبوا عليهِ وقاتلوه وقتلوه سنة ١٠٢ هـ . وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبله وهو محمد ابن يزيد مولى الانصار وكتبوا الى الخليفة يزيد بن عبد الملك «انا لم نخلع أيدينا من الطاعة ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا علينا محمد بن يزيد » وأحسن يزيد تناول الموقف فكتب اليهم « اني لم أرض بما صنع يزيد ابن أبي مسلم» وأقر محمد بن يزيد على عمله مدَّة أيام ثم سنح لهُ ارسال بشر بن صفوان حاكم مصر الى افريقية فكتب اليهِ بالتوجه اليها وأقرَّ أخاه حنظلة على مصر عوضه برغبة أخيهِ بشر

وكان هشام بن عبد الملك على دهائهِ وكفايتهِ السياسية أقل توفيقاً في سياسته مع البربر من أخيهِ يزيد ، وقد أثار بذلك ثورة خطيرة انتشرت انتشاراً مروعاً وامتدَّت لواهبها من افريقية الى الاندلس ، وكانت ميوله عند ما تولى الخلافة يمانية ولكن انتهى بهِ الامر الى أخذ جانب القيسية لانهُ وجدهم أطوع لهُ وأكثر تلبية لجشعهِ فأسلمهم الولايات التي يحسنون استغلالها ويستخرجون منها ربحاً ضخماً ، ففي سنة ١١٤ هـ . استعمل على افريقية عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث مولى بني سلول صاحب خراج مصر وكان عبيد الله رجلاً مثقفاً راجح العقل حافظاً للاشعار ملمَّا بأيام العرب وكان

متواضعاً لا يزدهيه السلطان فقد قدم عليه وهو حاكم افريقية وفي أوج مجده عقبة ابن الحجاج السلولي — وكان أبوه الحجاج قد أعتق الحارث جد عبيد الله — فأكرمهُ وأجلسهُ معهُ على فراشه. وكان لعبيد الله أولاد لهم في أنفسهم أخطار فلما وجدوه جالساً معهُ لم يرقهم ذلك فلما خلوا بأبيهم عاتبوه واشتدوا عليه في العتب وقالوا لهُ « عمدت الى اعرابي فأجلستهُ معك وحولك وجوه قريش والعرب والله ليقعنَ ذلك في أنفسهم بحيث تكره وأنت شيخ لا قامي عليك لعل الموت ان يختلسك فلا تستضر بعداوة احد وانما نتوقع ان يبقى علينا العار ومع ذلك لا نأمن ان يبلغ ذلك امير المؤمنين فيقع من قلبه اعظامك هذا وتصغيرك قريشاً »

فأظهر عبيد الله لهم الاقتناع برأيهم وقال لهم « يا بنيَّ صدقتم ولم الق بالاً لما ذكرتم وأنا غير عائد الى ما كان مني »

ولما اصبح بعث الى الناس فأجلسهم وبعث الى عقبة فلما جاء اجلسهُ في صدر المجلس وقعد هو عند رجليه، ولما اجتمع الناس وكثروا بعث الى اولاده فلما دخلوا عجبوا وعلموا ان الشيخ سيطلع بائقة ويرميهم بفادحة ولما اطمأن بهم المجلس قام عبيد الله على رجليه فحمد الله وأثنى وصلى على النبي (صلعم) ثم ذكر ما كان من قول اولاده ثم قال « ايها الناس اشهد الله واياكم وكفى بالله شهيداً ان هذا عقبة بن الحجاج وان الحجاج أعتق الحارث وان اولادي هؤلاء لعب بهم ابليس وعجبهم بأنفسهم فأردت ان أبرأ الى الله من الكفر ومن حق هو لله ولهذا قبلي وخفت ان يترامى الحال بأولادي الى انكار حق علمهُ الله بالتبري من ولاء هذا وأبيه ان يلعنهم الله واللاعنون فاني سمعت عن رسول الله (صلعم) انهُ قال « ملعون من ادعى الى غير نسبه ملعون من أنكر نعمة المنعم عليه » وان ابا بكر الصديق رحمهُ الله قال « كفرٌ بالله تبرٍ من نسب وان

دق وكفر بالله ادعاء الى نسب مجهول » فكرهت لكم يا بني ان نبوء بلعنة الله ولعنة اللاعنين فأكثر نظري كان لي ولكم، وأما قولكم ان الامر يقع لي عند امير المؤمنين بحيث اكره كلاً امير المؤمنين أبقاه الله أحلم وأعلم بالله وأرعى لحقوقه من ان يكون منه ما وصفتم بل يقع ذلك منه موقع رضاه » فشكره الناس ودعوا له وقام ولده وقد أصغرهم الحق وأقامهم، والتفت الى عقبة وقال له « ياسيدي حقك واجب وقد بسط لي امير المؤمنين ما ترى وأنت عند رضى فان شئت وليتك الاندلس، فاختار عقبة الاندلس وقال «اني احب الجهاد وهي موضع جهاد» ودخل الاندلس وافتتح الارض حتى بلغ اربونة

ولكن عبيد الله برغم سمو اخلاقه ووفرة فضائله كان مثل سائر العرب حين صعود نجمهم لا يستطيع ان يغالب احتقاره للاجناس غير العربية، فالاقباط والبربر والاسبان في رأيه ادنى منزلة من العرب وانما وجدوا ليستجيبوا لمطالب العربي ويزيدوا ثروته، وكانت نزعته القيسية تميل به نحو سياسة قيس في استغلال الولايات التي يعهد الى افراد منها حكمها تمكيناً لمكانتهم عند الخليفة وقد زاد عبيد الله وهو على خراج مصر ضرائب الاقباط حتى اضطرهم الى الثورة ولما عين حاكماً لافريقية اراد ان يشبع رغبات سادة دمشق على حساب البربر وكانوا يكتبون اليه في جلود الخرفان العسلية فتذبح مائة شاة ربما لم يوجد فيها جلد واحد من النوع المطلوب وقد اضر ذلك بحالة البربر الاقتصادية وساء البربر ان ترسل نساؤهم وبناتهم الى بلاط دمشق ولكنهم كظموا غيظهم واحتملوا ذلك صابرين لمدة خمس سنوات كان يثنيهم فيها عن الثورة وجود جيش ضخم وكانت الثورة خلال ذلك تستجمع عواملها وتستوفي عناصرها وتصطبغ بالصبغة الدينية تبعاً لطبيعة البربر، والفارق الكبير بين مزاج البربر ومزاج العرب ان

العربي بطبيعته نزاع الى السخرية ميال الى الشك . أما البربري فانه عميق العاطفة الدينية يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق لما وراء الطبيعة ولا يفطن من فوره الى الجوانب الفكاهية في الاشياء ولا يدرك متناقضاتها وانما يكتفي بالايمان الشديد ومن ثمَّ فرط احترامه لرجال الدين وسهولة انقياده لهم ، والبربر لم يلعبوا دوراً هاماً في التاريخ الاَّ عند ما استفزهم الدين ، ورجال الدين عند البربر هم الذين وضعوا اساس دولة المرابطين ودولة الموحدين ، وعندما حاربوا العرب كانت تقود جموعهم امرأة كاهنة كانت تدَّعي النبوة وتخرق المعجزات وقد فهم عقبة ابن نافع عقليتهم واستطاع بعد ذلك ان يختلب ألبابهم ويجتذبهم للاسلام، ولما ذاع فيهم الاسلام لم يكن اسلاماً رسمياً هيناً وانما كان اسلاماً جدياً صارماً كالاسلام الذي يبشر بهِ غلاة الخوارج، وقد وجد الخوارج ، بعد ان لحقهم الفشل وكثر الاضطهاد في الشرق تربة صالحة وجواً مناسباً لنشر تعاليمهم بين البربر،ومبادىء الخوارج اقرب الى المبادىء الجمهورية المتطرفة وهي بهذه المثابة تلائم مزاج العرب ولكن العرب نبذوها لانهم لا يطيقون الاسراف في الدين ولا يأخذونهُ مأخذ الجد الشديد العبوس الذي كان يميز الخوارج ، ولم يعمل البربر على فهم الخلافات الدقيقة بين فرق الخوارج وانما راقهم منها الجانب الثوري والمبادىء الديمقراطية

ولما عنت لهم الفرصة المناسبة أشعلوا نيران الثورة في افريقية ولم تستطع جيوش العرب اخمادها ، ولما انتهى خبر الثورة الى الخليفة هشام وما كان من أمر الخوارج وخلعهم لطاعته وعيثهم في الارض شقَّ عليهِ ذلك وعزل عبيد الله بن الحبحاب عن افريقية وولى عليها كلثوم بن عياض القشيري ووجه معهُ جنداً كثيفاً لقتالهم وأرسل معهُ بلج ابن أخيهِ ليخلفهُ اذا مات وكان كلثوم شيخاً كبيراً . ولما نزل كلثوم افريقية

خرج اليه ناس كثير واستضخم جيشه ومع ذلك فانهُ لما تلاقى مع البربر انجلت الموقعة عن شر هزيمة وقتل كثيرون من أشراف العرب بينهم حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة ابن نافع وجرح كلثوم ولاذ بلج بمدينة سبتة واحتمى بها

ولم يشأ العرب في أسبانيا اغاثة العرب المحصورين في سبتة لانهم كانوا يخشونهم ، وكان العنصر السائد في عرب أسبانيا في ذلك العهد أكثره من أهل المدينة من أبناء المهاجرين والانصار ، وكانوا قد هجروا المدينة بعد ان أصابهم ما أصابهم من قسوة أهل الشأم وتنكيلهم بهم في موقعة الحرة وانضموا لجيوش موسى بن نصير واشتركوا معهُ في الفتح ، وكانت كراهتهم لاهل الشأم لا تزال متقدة اللظى مسجورة السعير ، وعند قيام ثورة البربر كان عقبة بن الحجاج لا يزال حاكماً للاندلس وأوهنت الثورة نفوذ حاكم افريقية واتفق ان عقبة مرض مرضاً خطيراً لا يرجى فاضطره المدنيون الى جعل عبد الملك بن قطن خليفة لهُ ، وكان عبد الملك احد الذين نجوا من سيوف اهل الشأم في معركة الحرة وكانت عداوته من اجل ذلك لاهل الشأم شديدة ظامئة الى الانتقام ، وكان بلج مضطرًا الى التماس معونته والاستظلال بعطفه وكان عبد الملك في التسعين من عمره فلما لاحت له هذه الفرصة للتشفي من اعدائه القدماء بعد هذا العمر الطويل ابت لهُ ذكريات يوم الحرة ان يفلتها وسره ان يتركهم يتضورون جوعاً ويفنون حسرة وهزالاً جزاء وفاقاً لهم لفتكهم بقومه وقتلهم اصدقاءه ، ولما رأى عرب الاندلس استغاثتهم وهلكتهم هزَّ ذلك اريحية رجل من لخم فجهد جهده وبذل ما عنده وأمدهم بقاربين شحنهما بالشعير والادام فلما اتاهم ذلك نالوا منهُ ولكنهُ لم يبلغ منهم مبلغاً حتى اشرفوا على الهلاك وأكلوا البقل والعشب وجلود الخيل واتهم عبد الملك الرجل الذي اعانهم بتغريب الجند عليه

وسمل عينيه وضرب عنقه وصلبهُ مبالغة في التمثيل به وليكون عبرة لغيره

ولكن الاقدار كانت مشيئتها غير ما يريد عبد الملك فقد حدث في هذا الظرف المؤلم العصيب حادثة ارغمت عبد الملك على تغيير سياسته واجبرتهُ على التقرب من المحصورين في سبتة ، وذلك ان البربر في اسبانيا كانوا يقاسمون اخوانهم في افريقية الغيرة من العرب ويشاطرونهم الحقد والموجدة عليهم ، وكانوا يرون انفسهم الفاتحين الحقيقيين لاسبانيا الذين احتملوا الصدمة الاولى وذللوا العقبات وعبدوا الطريق وجاء بعدهم العرب واستغلوا جهدهم وجنوا ثمار الفتح ولم يكن لهم هم سوى احتلال البلاد التي فتحت لهم ابوابها بلا مقاومة . ولما جاء وقت تقسيم الغنيمة وتوزيع الاسلاب ظفر العرب بنصيب الاسد ورفت عليهم ظلال النعمة وانفردوا بمناصب الحكومة واستأثروا بأجمل البقاع وأنضرها جناباً وأخصبها ارضاً ونزلوا للبربر عن الاصقاع القاحلة الـكزة حيث كان نصيبهم فيها الاستهداف الدائم لحملات الاسبانيين الذين لم يخضعوا خضوعاً تاماً ، وكانت مصائر اسبانيا مرتبطة بمصائر افريقية بحيث لا يمكن ان تكون حوادث افريقية بغير صدى في اسبانيا ولذا قام البربر بثورة كبيرة وأسرفوا في تقتيل العرب ومنيت بالفشل جميع الحملات التي ارسلها عبد الملك لاخماد الثورة وحسم خطرها . وتحرج موقف العرب في اسبانيا وضاق عبد الملك بالامر ذرعاً ولم ير أعز لهُ وأبقى على حياته ونفوذه من الاستمداد بأعدائه الالداء اهل الشأم المحصورين مع بلج في سبتة فدخل معهم في مفاوضة وبعث اليهم السفن حافلة بالاطعمة والادام لتمسك عليهم ارماقهم وأدخلهم ارسالاً واشترط عليهم ان يعطوه من كل جند عشرة من قوادهم باعتبارهم رهناً يضعهم في جزيرة في البحر فاذا فرغوا من الحرب جهزهم وحملهم الى افريقية فرضوا بذلك وأعطوه عهداً ، واتخذوا عليه

عهداً ان يحملهم الى افريقية جملة لا يفرقهم ولا يعرضهم البربر ودخل معهم وفي جملتهم عبد الرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع بعد ان قتل ابوه في نقدورة . وكان دخولهم الاندلس سنة ١٢٣ هـ . ولما نزلوا ارض الاندلس في أسمالهم الخلقة وجدوا جلوداً مدبوغة فقطعوا منها المدارع وتدرعوا بها . ولما اقبلوا الى قرطبة كسا ابن قطن خيارهم وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا وأخذ عبد الملك رهنهم . وأقرهم بجزيرة ام حكيم في البحر. واقبل البربر الى مدينة طليطلة وصمد لهم عبدُ الملك بمن معهُ صمدهم فالتقوا في ارض طليطلة على وادي سليط واقتتلوا اقتتالاً شديداً واستبسل اهل الشأم وانهزم البربر فقتلوهم قتلاً ذريعاً ولم ينج منهم الاَّ الشريد وجول اهل الشأم في ارض الاندلس وقتلوا البربر حتى اطفأوا جمرتهم ولما فرغوا كروا قافلين الى قرطبة ولما امن عبد الملك غائلة البربر واطمأن بهِ الحال طلب اليهم الخروج من الاندلس وكانوا قد أثروا من الغنائم وانتعشت احوالهم واشتدت شوكتهم فقالوا « أخرجنا الى افريقية » فاعتذر عبد الملك بأنهُ لا يملك السفن الكافية لنقلهم مجتمعين وقد صارت لهم خيول ورقيق ومتاع وعرض عليهم ان ينقلهم ارسالاً فأصروا على الخروج مجتمعين فقال لهم عبد الملك « اخرجوا الى سبتة » فقالوا له « تعرضنا لبربر طنجة اقذف بنا في لجة البحر أهون علينا » واستشفوا من مضامين كلامه سوء نيته وانطواءه لهم على الغدر وذكروا صنيعه بهم ايام انحصارهم في سبتة وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة فخلعوه وقدموا على انفسهم اميرهم بلج بن بشر ووثبوا على عبد الملك بن قطن واخرجوه من قصر الامارة وادخلوه بلجا صاحبهم وبايعوا له ونزل ابن قطن داره وهرب ابناه فلحق احدهما بماردة ولحق الآخر بسرقسطة واختلط امر الناس بالاندلس وأمسك والي الجزيرة عن امداد الرهن

الذين في جزيرة ام حكيم بما يعيشهم من الطعام والماء والجزيرة التي هم فيها لا ماء لها فمات من الرهن رجل من اشراف الشام ، فلما بعث بلج في اخراجهم واقبلوا اليه شكوا ما ركبهم به ابن قطن وقتله صاحبهم بالعطش وقالوا له « اقدنا منهُ » فحاول بلج ان يهدىء ثائرتهم وقال لهم « ان موت صاحبكم كان على شبه الخطأ ولكن امهلوا حتى نرى ما تصير اليه الامور » فلم يفثأ هذا الكلام غلتهم ولم يردهم الى الاصالة واتهموا بلجا بالتعصب للمضربة وهموا بخلع طاعته وخشى بلج تفرق الكلمة وانصداع الشمل وهو في مهاب الرياح ومركزه مقلقل فامر بعبد الملك بن قطن فأخرج اليهم وهو شيخ كانهُ فرخ نعامة فجعلوا يصيحون به ويتنادرون عليه ويقولون له « يا فالّ فللت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا اكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة » وأخرجوه الى رأس قنطرة قرطبة فقتلوه وصلبوه عن يسار الطريق وصلبوا عن يمينه خنزيراً وصلبوا عن يساره كلباً واقاموه كذلك يوماً ثم ان موالي له من البربر طرقوه وسرقوا خشبته وواروا جثته ، فلما بلغ ابنيه ما كان حشدا جمعاً من اقصى اربونة ونشبت الحرب بين المدنيين والسوريين وانضم البربر الى المدنيين فقد رضوا ان ينالوا ثأرهم من اهل الشام فاذا فرغوا كان لهم في المدنيين رأي وأقبل قطن وأمية ابنا عبدالملك ومعهما عبدالرحمن ابن حبيب وكان في اصحاب بلج فلما صنع بعبد الملك ما صنع انحاز عن بلج وخرج عن دعوة اهل الشام ، واقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة صاحب اربونة حتى صاروا على مقربة من قرطبة فخرج اليهم بلج في اصحابه فقاتلوهم فلم يقوموا له ولم يصبروا الا صبراً يسيراً الا ان عبد الرحمن بن علقمة وكان يعد فارس اهل الاندلس قال لهم « أروني بلجا فوالله لأقتلنهُ او لأموتنَّ دونهُ » فأشاروا الى بلج وقالوا له صاحب الفرس الابيض فشد بخيل الثغر فانفرج اهل الشام عن بلج والراية في يده فضربهُ بالسيف على

رأسه فشد عليه من رجال بلج الحصين بن الدجن فضربه ضربات بالسيف وجمله من باله حتى قطع عادينه وشغله بنفسه وانهزموا هزيمة قبيحة وتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون ومات بلج الى أيام يسيرة ، فولوا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملي فحاربه أهل الاندلس الاقدمون والبربر طلباً للثأر وآل أمرهم معه الى ان حصروه بمدينة ماردة وهم لا يشكون في الظفر الى ان حضر عيد تشاغلوا به فأبصر ثعلبة منهم غرة وانتشاراً وأشراً بكثرة العدد والاستيلاء فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون فهزمهم هزيمة شنعاء وأفشى فيهم القتل وأسر منهم كثيرين وسبى ذريتهم وعيالهم وأقبل الى قرطبة بعدد كبير من سبيهم حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد ان يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة وأصبح الناس منتظرين لقتل الأسارى فبينما كان في السوق وهو يبيع السبي بالنداء ويعبث ويبطر ويبيع الشيوخ والاشراف ممن ينقص لا ممن يزيد وكان فيهما رجلان من أشراف أهل المدينة فابتدأ المنادي عليهما بعشرة دنانير فلم يزل ينادي من ينقص حتى باع أحدهما بعود والآخر بكلب فبينما هو وأصحابه على هذه الحالة من العبث والبغي فاذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب فنظروا فاذا ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي قد أقبل والياً على الاندلس من قبل حنظلة ابن صفوان صاحب افريقية وذلك سنة ١٢٥ هـ .

وكان جماعة من أهل الرأي في الاندلس قد ساءتهم هذه الاحوال والفظائع التي ارتكبت وقدروا خطر استفحال الشر بين المدنيين وأهل الشأم وما ينجم عنه من بلاء مستطير وفناء محقق فأرسلوا الى صاحب افريقية « ان أغثنا بوالٍ يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين حتى يصير المدنيون والشاميون على دعوة واحدة فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » فأرسل لهم حنظلة بن صفوان عامل افريقية أبا الخطار

فرضي بهِ الفريقان وصارت الكلمة جامعة وأبعد الزعماء المشاغبين الطامعين ومن بينهم ثعلبة بن سلامة وهرب منهُ الى افريقية عبد الرحمن بن حبيب حيث كان ينتظره هناك مستقبل زاهر وملك عريض وأظهر ابو الخطار العدل فدانت لهُ الاندلس ، وكان ابو الخطار مع فروسيتهِ وحزمهِ شاعراً محسناً وهو صاحب الابيات المشهورة في العتب على بني مروان والتي رفعت الى مسامع الخليفة هشام وكان لها في نفسهِ وقعٌ بليغ وفيها يقول : —

أفأتم بني مروان قيسا دماءنا وفي الله ان لم تصفوا حَكَمٌ عَدل

كأنكمو لم تشهدوا مرج راهطٍ ولم تعلموا من كان ثَمَّ لهُ الفضل

وقيناكمو حدَّ القنا بنحورنا وليس لكم خيلٌ سوانا ولا رجل

فلما بلغتم نيل ما قد أردتمو وطاب لكم منا المشارب والأكل

تعاميتمو عنا بعين جلية وأنتم كذا ما قد علمنا لنا فعل

فلا تأمنوا ان دارت الحرب دورةً وزلت عن المرقاة بالقدم النعل

فينتقض الحبل الذي قد فتلتمو ألا ربما يلوى فينتقض الحبل

وسار ابو الخطار سيرة حميدة ولكن كان من الصعب على رجل عربي قح مثله ان يقمع تعصبه لقومهِ وسرعان ما مالت بهِ العصبية اليمانية على المضرية فهاج الفتنة العمياء ، وكان سبب هذه الفتنة ان أبا الخطار بلغ بهِ التعصب لليمانية ان اختصم عنده رجل من قومهِ مع خصم لهُ من كنانة كان أبلج حجة من ابن عم ابي الخطار فمال ابو الخطار مع ابن عمه ، فأقبل الكناني الى الصميل بن حاتم ، أحد سادات مضر ، وشكا اليهِ حيف أبي الخطار وكان أبيًّا للضيم حامياً للعشيرة فدخل على ابي الخطار وأمض عتابه فنجههُ ابو الخطار وأغلظ له الرد فرد الصميل عليه فلكزه ابو الخطار

وأمر به فأقيم ودع قفاه حتى مالت عمامته فلما خرج قال له بعض من على الباب « يا أبا الجوشن ما بال عمامتك مائلة ؟ »

فأجابهم « ان كان لي قوم فسيقيمونها »

وأقبل الى داره فاجتمع اليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين فباتوا عنده فلما اظلم الليل قال لهم « ما رأيكم فيما حدث عليّ فانه منوط بكم » فقالوا له « اخبرنا عما تريد فان رأينا تبع رأيك فقال « أريد والله اخراج هذا الاعرابي من هذا السلطان على ما خيلت وأنا خارج لذلك عن قرطبة فانه ما يمكنني ما أريد الاّ بالخروج فالى أين ترون أقصد ؟ »

فقالوا له « اذهب حيث شئت ولا تأت أبا عطاء القيسي فانه لا يواليك على أمر ينفعك » وكان ابو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن باستجة وكان مشاحناً للصميل مسامياً له في القدر ، فسكت عند ذكره أبو بكر بن الطفيل العبدي وكان من أشرافهم الاّ انه كان حدث السن ، واسترعى صمته التفات الصميل فقال له « ما بالك صامتاً ألا تتكلم ؟ » فأجابه « أتكلم بواحدة ما عندي غيرها » فقال له الصميل « وما هي » قال « ان عدوت اتيان ابي عطاء وشئت امرك به لم يتم امرنا وهلكنا وان انت قصدته لم ينظر في شيء مما سلف بينكما وحركتهُ الحمية لك فأجابك الى ما تريد » فقال له الصميل « أصبت الرأي » وخرج من ليلته وقام أبو عطاء في نصرته على ما قدره العبدي وعمد الصميل بعد ذلك الى ثوابة بن سلامه الجذامي أحد أشراف اليمن وسادتهم وكان ساكناً بمورور وكان منحرفاً عن أبي الخطار فأجابهما في القيام والتقدم على المضرية

والواقع أن اغضاب الصميل كان خطأً سياسيًّا كبيراً تورط فيه أبو الخطار لان الصميل كان رجلاً يحسب لعداوته حساب كبير، وقد قدم الصميل الاندلس في طليعة

بلج مع امداد أهل الشأم وكان أصله من الكوفة وهو حفيد شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي، وكان المختار قد قتل شمراً بعد ذلك فارتحل ولده عن الكوفة فصاروا بالجزيرة، فلما جند جند قنسرين في الحملة التي قادها كلثوم بن عياض صار الصميل فيه ورأس بالاندلس ودانت له قيس وفاقهم بالنجدة والسخاء

وكان الصميل رجلاً دافق الحيوية جياش الصدر بمراجل الاهواء لا تختلج في ذهنه فكرة سامية نزيهة ولا تعرف السبيل الى نفسه العواطف اللينة الرقيقة والمشاعر الرفيعة المهذبة، وكان ماكراً حولاً عاكفاً على الخمر صبًّا بالنساء، وكان جاهلاً بالقرآن فاتر العاطفة الدينية فهو جديرٌ بأن يكون جده شمر الذي لم يعفُ عن قتل الحسين ارضاء لبني أمية وحرصاً على حطام الدنيا، وكان اميًّا نزر المعرفة محدود الافق مرَّ يوماً بمعلم صبيان وهو يتلو آية « وتلك الايام نداولها بين الناس » فعجب عند سماعها ووقف يتفهم والتفت الى المعلم وقال له « اكذا نزلت الآية؟ » فأجابه « نعم » فقال « أرى والله أن سيشركنا في هذا الامر العبيد والاراذل والسفلة » وكان ينشط ويثور وتكثر حركته عندما تستيقظ اهواؤه فاذا هدأت ثورة عواطفه عاوده التبطل والفتور والاخلاد الى اللهو وكان الصميل مع ذلك جذّاب الشخصية ملمًّا بآداب المجتمع غمر البديهة بارع الحديث

وبلغ ابا الخطّار ما كان من امر الصميل وتأليبه القوم عليه واجتماعهم في شدونة فغزاهم في جماعة اهل الاندلس ولقيهُ ثوابة بناحية وادي لكة فانهزم ابو الخطار وقتل قليل من اصحابه وحصل اسيراً في ايديهم فأرادوا قتله ثم ارجؤه وأوثقوه وأقبلوا به الى قرطبة وذلك سنة ١٢٧ هـ . بعد سنتين من ولايته وولي الاندلس ثوابة وقام بأمره كله الصميل واجتمع عليه اهل الاندلس وهرب ابو الخطار من حبسه بمساعدة

قومه وقام بمحاولة لاسترداد سلطانه ولكنهُ لم يوفق فيها ولم تشتد اليمنية في نصرته لان ثوابة نفسه كان منهم وخاطب اهل الاندلس عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان في امر ثوابة فكتب اليه بعهد الاندلس ومات ثوابة بعد سنة واشهر من ولايته سنة ١٢٩هـ. فعادت الفوضى وغام الجو وتنازع على الولاية زعيمان من اليمنية وهما عمرو بن ثوابة ويحيي بن حريث، وكان عمرو يرى نفسه وارثاً للولاية بعد موت ابيه ثوابة . وكان يحيي بن حريث شديد الكراهة للشاميين ولم يكن الصميل وهو يدري نزعته ليمكنهُ من الولاية وعارض الصميل كذلك في ولاية عمرو بن ثوابة ولم يطمح الصميل ببصره الى الولاية لانهُ كان يعرف تكاليفها ويعلم جيد العلم ان قومه من القيسية أضعف منة من ان يحموا ظهره ويقيموا دعائم ولايته ولذا كان يرمي الى اختيار حاكم مسلوب الارادة سهل الانقياد ليكون طوع اشارته وقد اصاب ذلك في يوسف بن عبد الرحمن الفهري فقد كان يوسف رجلاً قريب الغور مجدب الفكر مخلوع الانياب وكان بلاؤه في الجهاد وتجافيه عن الشغب والدسائس وانحداره من صلب عقبة بن نافع ومكانة قبيلته وكبر سنه تجعل اهل الاندلس يرحبون بولايته وقد ولد يوسف بالقيروان ودخل ابوه عبد الرحمن بن حبيب الاندلس ثم عاد الى افريقية وهرب عنهُ ابنه يوسف هذا من افريقية الى الاندلس مغاضباً له فهوى الاندلس واستوطنها وساد بها ، ولما تقلد يوسف ولاية الاندلس كان في السابعة والخمسين من عمره، واصبح الصميل هو الحاكم الحقيقي للاندلس وكان يوسف طوع يده يسيره كيف شاء ، ولما اجتمع اهل الاندلس على يوسف تركوا كورة رية ليحيي بن حريث تألفاً له وتحرجاً من الشقاق. فلما استقام الامر ليوسف لم يلبث ان غدر بابن حريث ، وذلك بسبب تحريض الصميل الذي كان يريد ان يتحدى اليمانية وعزله عن كورة رية

فنضب ابن حريث وكاتب ابا الخطار الذي كان يترقب الفرص ليستعيد نفوذه وينتقم لنفسه وقال ابو الخطار « انا الامير » وقال له ابن حريث « بل انا اقوم بالامر لان قومي اكثر من قومك » فلما رأت قضاعة ما يدعوا اليه ابن حريث أحبوا جمع كلمة اليمن فأجابوا ابن حريث وقدموه وأصفقت يمن الاندلس حميرها ومذحجها وكندتها وقضاعتها وانحازت المضرية الى يوسف والصميل ، وكان يخرج الجيران فيودع بعضهم بعضاً توديع الاصفياء المتحابين ليلتحق كل واحد منهم بقومه ويتلاقوا في ساحة القتال اعداء متحاربين

وزحف ابن حريث وابو الخطار الى يوسف والصميل بقرطبة ، واقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة من الناحية القبلية بقرية شقندة ، وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما والتقوا حين صلوا الصبح وتطاعنوا حتى تقصفت الرماح ، وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت السيوف ، ثم تقابضوا بالايدي والشعور ، ولم يكن القوم بكثير وانما كانوا زهرة أشراف العرب وصفوة شجعانهم وكانت الموقعة أشبه بمبارزة واسعة النطاق منها بحرب ، وكانوا متقاربين في العدد الاّ ان اليمن كانوا أكثر قليلاً ، فلما أعيا بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسي والجعاب ويحثي بعضهم التراب على بعض ودنا المساء دون ان ترجح كفة فريق على فريق ، ومن المحتمل ان يكون الصميل قد استشعر الهزيمة وخشي مغبتها حين التفت الى يوسف وقال لهُ « ما وقفنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم في غفلة » فقال لهُ يوسف « ومن هم » فقال الصميل « أهل السوق بقرطبة » وكان غريباً ان يستنجد رجل عربي صميم من غرار الصميل بأهل السوق من قصّابين وأصحاب صناعات ، وراقت الفكرة يوسف فردّ اليهم مولاه خالد بن زيد يستجيشهم ويدعوهم الى الميدان فثابوا اليه وخرجوا في نحو

اربعمائة رجل من أنجادهم يحملون الخشب والعصي ومع قليل منهم السيف والمزراق
وكان القصابون يحملون سكاكينهم وجاءوا الى قوم قد برح بهم اللغوب وبلغ منهم الاعياء
كل مبلغ فلم تبق فيهم فضلة لكفاح فأوسعوهم قتلاً وأسروا منهم كثيرين وأسروا ابا
الخطار وابن حريث وكانا الاميرين. وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون
أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحى التي بموضع بيع الخشب فلما أسروا أبا الخطار
وهموا بقتله أراد ان يشاركه في مصيره ابن حريث وكان أبصره وهو يختبيء فقال —
لهم « ليس عليَّ فوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث » ودلَّ عليه فأخرج وكان
من أقوال ابن حريث المأثورة في كراهة أهل الشأم قولهُ « لو ان دماء أهل الشأم
جمعت لي في قدح لشربتها » فلما رآه ابو الخطار سخر منهُ وقال لهُ « يا ابن
السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربهُ » ؟ وقدما وقتلا ثم أتى بسائر الاسرى
وقعد لهم الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة وجرَّد من نفسه خصماً
وحكماً وجلاداً وأطار رؤوس سبعين رجلاً منهم واجتوى ابو عطاء هذا المنظر
الوحشي واستفظع هذه المذبحة فقام الى الصميل وقال لهُ « يا أبا جوشن راجع سيفك
وأغمده » فأجابهُ الصميل وقد استطاره سعار الانتقام واستهوتهُ لذَّة التشفي « اقعد
أبا عطاء فهذا عزُّك وعز قومك » ولم يغمد السيف فجلس ابا عطاء ممتعضاً ولما عاود
الصميل أفاعيله لم يستطع ابوعطاء الصبر على رؤية ما يعانيه هؤلاء البائسون وكانت
غالبيتهم من اليمنيين السوريين ولمح ابو عطاء وراء مسلك الصميل أثر عداوة أهل
العراق لاهل الشأم فنهض غاضباً وقال للصميل « والله ان تقتلنا الاَّ بعداوة صفين،
لتكفنَّ او لأدعونَّ بدعوةٍ شامية » وخشي الصميل استفحال الشر فأغمد سيفه
مكرهاً وأمن الناس على يد ابي العطاء بعد هذا البلاء العظيم

وأصبح يوسف بعد موقعة شقندة حاكم الاندلس المطلق ، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد الصميل ، وكان يوسف مغلول اليد منهوب النفوذ مذعناً لامر الصميل فكبر عليه ذلك وحاول الخلاص من الصميل فاختاره حاكماً لسرقسطة وطابق هذا الاختيار هوى الصميل لان أكثر سكان سرقسطة والاقاليم التي حولها من اليمنية ومن ثمّ فالفرصة هناك سانحة ليرتوي غليله من اضطهادهم والتنكيل بهم فأتى سرقسطة في مائتي رجل من قريش ومن كان معهُ من غلمانه وحشمه ومواليه فنال بها ملكاً وثروة وافرة ، واشتدَّ القحط بأهل الاندلس وعضتهم الفاقة فكان يفد عليه محاويج الناس فيعطيهم الاموال والرقيق ولم يأنه صديق ولا عدو لحرمهُ وأقام بسرقسطة طيلة اعوام الشدائد التي توالت على الاندلس عاملاً على كشف الغمة وتفريج الازمة بكرمه السابغ وعطفه الشامل كأن المحن الشديدة والمجاعات الموبقة التي توالت على الاندلس خلقت منهُ شخصاً آخر غير ذلك المنتقم الجبار الوالغ في الدماء ، ولو ساد التفاهم وتمَّ الوفاق بين القيسية واليمنية لأمكن اسبانيا ان تحظى بأيام مليئة بالصفاء بعد تلك الخلافات المتأججة والمعارك الحامية ، ولكن العداوة القبلية كانت أشد تأصلاً وأقوى مراساً من ان يكبحها العقل او تطامن منها المصلحة العامة ، وكان اليمنيون لا يطيقون الصبر على احتمال نير القيسية وكانوا يضمرون الوثوب عليهم عند اول فرصة لاستعادة نفوذهم ، وكان يعطف على قضيتهم ويشاركهم في تذمرهم بعض القرشيين الذين ساءهم ان يحكم أسبانيا رجل من الفهريين ، وكان المتوقع والمأمول في هذه الحالة ان يتم التحالف بين الحزبين المتذمرين ولم يطل تنظر ذلك فقد نبغ في قرطبة شاب شريف من بني عبد الدار يقال لهُ عامر وكان متوثب النفس بعيد الطموح وكان يلي الصوائف التي تجاهد المسيحيين في شمال أسبانيا فحسدهُ يوسف وخافهُ على نفوذه فعزلهُ فنال منهُ ذلك

وأثار حفيظته وحاول ان ينتقم لنفسهِ وطمع في الولاية وأراد ان يستغل تذمر اليمنية وتجمعهم تحت لوائهِ فادعى ان الخليفة العباسي أرسل اليهِ سجلاً بالولاية على الاندلس وبدأ حركتهُ بتشييد حصن في ضيعة يملكها في غرب قرطبة وكان في نيتهِ عند اتمام بناء الحصن ان يناور يوسف حتى يأتيهِ امداد اليمنية المتحالفين معهُ، وفطن يوسف لتزايد قوتهِ واقبال الناس عليهِ فلم يشأ ان يخمد حركته قبل مشاورة الصميل في أمره فكتب اليهِ يعلمهُ بما تبدل من أمر عامر فأجابهُ الصميل يشجعهُ على قتله وكان عامر لا يخفى عليهِ شيء من سر يوسف فخرج هارباً الى سرقسطة حيث الصميل ولم يرَ أمنع لنفسهِ منها لكثرة اليمن فيها، وعند وصولهِ الى سرقسطة كان هناك قرشي آخر من بني زهرة قد رفع علم الثورة فمتّ اليهِ عامر بصلة القرابة ووحدة الغاية وأجمعا على اثارة البربر واليمنية لخلع يوسف والصميل واتهامهما باغتصاب الولاية التي أوحى الخليفة في سجله باسنادها الى عامر وأجابهما رجال من اليمن وناس من البربر وبعث الصميل اليهما خيلاً ورجالاً فهزماها واجتمع لهما ملأ من الناس فأقبلا حتى حصرا الصميل في مدينة سرقسطة فكتب الى يوسف يسألهُ امداده فلم يجد في الناس منهضاً وتقاعد عن تحريكهم وذلك في سنة ١٣٦هـ، ولما أبطأ عنهُ يوسف وخاف ان يستنزل كتب الى قومهِ من قيس يعظم عليهم حقه ويسألهم امداده ويعلمهم انهُ يجتزىء من المدد بالقليل فقام في ذلك جماعة من كلاب ومحارب وسليم وهوازن وخفّ معهم من موالي بني امية بالاندلس ثلاثون فارساً على رأسهم ابو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وكانا يتواليان لواء بني امية يعتقبان ذلك وخرج معهما يوسف بن بخت. وقد حضروا كلهم شقندة مع يوسف والصميل وأظهروا صبراً محموداً وبلاءً عظيماً رفع مكانتهم في نفس يوسف والصميل وجميع قيس. ولما بلغوا طليطلة بلغهم ان الحصار قد

اضرّ بالصميل وخافوا ان يلقي بيده اذا يئس من المدد فيهلك فعجلوا اليه رسولاً من قبلهم وقالوا ادخل في جملة خيول عامر والزهري التي تقابل السور فارم هذه الحجارة وبعثوا معهُ حجارة وكتبوا فيها بيتي شعر وهما : —

تبشر بالسلامة يا جدار   اتاك الغوث وانقطع الحصار
أتتك بنات اعوج ملجمات   عليها الاكرمون وهم نزار

فسار الرسول حتى فعل فلما واقعت الحجارة المدينة امر الصميل ان يقرأ ما فيها فلما سمع ما فيها قال لمن معهُ « أبشروا قومي ورب الكعبة » وتمسك بالحصن وقوى ومضى القوم في طريقهم ولما أشرفوا على سرقسطة انكشف عامر والزهري وخرج الصميل فتلقاهم بالرحب وأعطاهم العطاء الجزيل ، وقد اشترك موالي الامويين في هذه الحملة لانهم كانوا يريدون ان يفضوا الى الصميل بأمر كبير الاهمية خطير الشأن نترك تفصيله للفصل القادم.

أوليّة عبد الرحمن

نكبة الامويين — وراثة عبد الرحمن ومولده ونشأته — رحلته الى افريقية — يأسه من تأسيس ملك بافريقية — دخول بدر الاندلس واتصاله بزعيمي الشيعة الاموية بها — استشارة الشيعة الاموية الصميل في امر عبد الرحمن — دخول عبد الرحمن الاندلس

اذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الامكنة العالية منها، وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يرى الا اكثر الامكنة اصعاداً في الجو، كذلك الناظر في تاريخ الامة العربية في عهد الاسلام كلما ابتعدت بنا عنها قافلة الزمن وتلفت الركب الى الوراء صرنا لا نلمح الا الشخصيات البارزة المتسامية اللائحة في الجو التاريخي الماضي، ويمكننا ان نرد اكثر ما نلمحه من تلك الشخصيات الى بيتين لعبا اكبر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم، وهما الشعبتان النابعتان من صلب عبد مناف، كان بنو هاشم في مكة سدنة الكعبة واصحاب السلطة الدينية، اما بنو امية فكانوا اصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم، وكانت قوافل تجارتهم دائمة الارتحال بين مكة والشام حيث تأثير الحضارة البيزنطية مستفيض، وقد أكسبتهم التجارة معرفة بالحياة وخبرة بأحوال النفوس، وكانت حماية التجارة تستلزم شحذ مواهبهم الحربية، وكان نفوذهم السياسي في مكة ينضج فيهم ملكات الرياسة وتدبير الامور وقد كانوا أقدر من بني هاشم على تصريف الاحوال الدنيوية واحتمال أعباء الحكم، وقد قوى

فيهم نفوذهم ورحلتهم الشأم حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل الى فاخر العيش ، كما زادتهم وفرة الثروة اقداماً وصلفاً ، وكانوا شديدي التمسك بالارض ليس لهم احلام متطايرة ولا خواطر محلقة ، والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة فهم لا ينظرون الى الدنيا في ضوء فكرة مقدسة أو في ظل مبدأ سام ، وليست نفوسهم من تلك النفوس التي تحاول أبداً أن تقيم الحياة البشرية الزائلة على أساس من الابدية الباقية وتحرص على أن تستمسك بصخرة من اليقين في بحر الحياة القلب ، بل كانوا يأخذون الحياة كما هي ويقبلونها على علاتها ويعملون على الاستفادة من فرصها والاستزادة من متعها ، والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم ومتسع للغلبة والاستعلاء واحراز الغايات واشباع الشهوات ، وقد قاوموا الاسلام في أول نشأته وكانوا أشد أعداء صاحب الرسالة حردا عليه ونالوه بألوان من الاذى والاضطهاد شأن الارستقراطية في عداوتها للنظم الجديدة ومستحدث الافكار خشية أن تتزحزح عن مركزها وتفقد نفوذها ، ولكنهم أدركوا بغريزة الرجال العمليين أن اليوم للاسلام فلانوا للعاصفة وتكيفوا مع الظروف ، وبمهارة فائقة وكياسة عظيمة تمكنوا من تحويل تيار الاسلام الى مصلحتهم واعلاء شأن بيتهم

وكانوا على ما بهم من قسوة وصرامة كرماء خبراء باجتذاب القلوب وكأنهم خلقوا بطبيعتهم ليحكموا ويسودوا ، وقد عاشوا في دمشق أحفل مدن الشرق اذ ذاك بالافتتان في أسباب الترف وهم بطبيعتهم الصحراوية من ذوي الشهوات الملتهبة فتغلبت شخصيتهم القوية ورجولتهم التامة على ما حولهم من أسباب الهدم ودواعي الاستغواء الى ان عقمت بطون نسائهم عن مثل معاوية ومروان وعبد الملك ولم تجد الا بمثل يزيد صاحب حبابة والوليد صاحب أبي قيس ، وأصابت الدعوة العباسية التي نظمت بدقة

عظيمة وفطنة ممتازة من ضعف أبناء الامويين مجالاً للانتشار والاشتداد فلما جاء الخليفة المنكود الحظ مروان بن محمد وكان فيه بقية من رجولة الامويين وشدة نهوضهم وسعة حيلتهم كانت قد كثرت الفتوق وساءت الاحوال واستعصى الداء فجاهد مستيئساً مستبسلاً حتى قضت على نفوذه معركة الزاب وذهبت بدولة الامويين ، وقد كان عمر عبد الرحمن عند نزول هذه النكبة بقومه يقرب من العشرين

وقد ولد عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ . بدير حنا من أعمال دمشق وأمهُ بربرية اسمها راح مثل أم معاصره العظيم وضريبه في الفحولة والاقتدار والمكيافيلية أبي جعفر المنصور ، ولعلَّ هذا يفسر لنا شيئاً من سر التشابه بين أخلاق الرجلين ، وقد مات أبوه معاوية في عهد جده هشام وقد اشتد جزع الخليفة هشام على معاوية هذا مع ما عرف عنه من قسوة في الطبع وجفاء في الخلق ، وكان من بواعث عطفه على الكميت الشاعر استجارته بقبره ، وقد كان رشحهُ للخلافة من بعده ، وقد حدثت لعبد الرحمن في ابان ترعرعه حادثة تركت أثراً في نفسه عميقاً ، وذلك أنه حمل مع اخوته الى الرصافة حيث كان يقيم جده هشام ، فلما كانوا وقوفاً على دوابهم ازاء الباب اذ أقبل مسلمة بن عبد الملك الامير الرضي الخلق نصير الادباء وكان معروفاً بالفراسة واستطلاع الغيوب ولما علم ان الصبية صغار معاوية اغرورقت عيناه بالدمع ثم دعاهم الاثنين فالاثنين حتى قدم له عبد الرحمن فأخذه وقبله وقال للقيم هاته وانزله من على دابته وجعله امامه واخذ يقبله ويبكي بكاء شديداً وشغل به عن سائر اخوته ، وبينما هما كذلك خرج هشام فلما رأى مسلمة قال ما هذا يا أبا سعيد فقال مسلمة « بنى لابي المغيرة رحمه الله » ثم دنا من هشام وقال له بصوت سمعهُ عبد الرحمن « قد تدانى الامر هو هذا » فقال هشام « اهو » فقال لهُ مسلمة « اي والله وقد عرفت العلامات

والامارات بوجهه وعنقه » من هذا اليوم صار جده يتعهده بالصلة في كل شهر دون سائر اخوته ، وقد كانت كلمات مسلمة دائمة الرنين في اذن عبد الرحمن لشهرة مسلمة بالتنجيم وكشف مخبآت الغيب ، وقد كانت الدعوة العباسية تسير في خفاء وتكتم وقد تسامع بها الامويون ولكن دعاتها بالغوا في اخفاء امرهم ولذا صار الخلفاء يشعرون بخطر يهدد كيانهم وينذر بوخامة العاقبة وسوء المنقلب ولكنهم لا يعرفون كيف يتتبعون اسبابه ويتعرفون مصدره ويحسمون علته وليس من المستغرب في مثل هذه الحالة التجاؤهم الى العرافين والمنجمين ليصرفوا عن انفسهم ألم الشك ووحشة الريبة ويستمدوا الثقة والطمأنينة ، وكان في العقل الاموي خاصة ميل الى التصديق بالتنجيم والاعتقاد بالغرائب والخفايا لقرب الامويين من البداوة وهذه النزعة ظاهرة في حياة عبد الرحمن ظهوراً جلياً برغم قوة عقله وصحة حكمه على الاشياء

وقد تدرب عبد الرحمن من اول نشأته على الاعمال الحربية لان سني الاضطراب التي مرت بالدولة الاموية في اواخر عهدها كانت تستدعي اشتراك الامراء في الجيش ، لاخماد الثورات وقمع الفتن ، وخالط عبد الرحمن كبار رجال الدولة وأشرف على سير الاعمال في ديوان الخليفة وكان يفوق الجميع في استعمال السلاح ومطاردة الصيد كما يرجح عليهم من الناحية العقلية والخلقية

ولما تمت كلمة العباسيين على اثر هزيمة الزاب اخذوا يتتبعون أثر بني أمية وأعملوا فيهم القتل والتمثيل ولم يتورعوا عن قتل النساء كما فعلوا بالاميرة عبدة بنت هشام ففرّ بنو أمية الى اطراف البلاد واستخفوا ، وخشي العباسيون ضياع الفرصة وكانوا لا يريدون الابقاء على احد منهم فركنوا الى الحيلة وأعلنوا في طول البلاد وعرضها اماناً كاذباً لبني أمية ، فخدع اكثرهم واقبلوا يسعون الى الشبكة التي نصبها لهم العباسيون ، وكان

عبد الرحمن يقيم مع اخيه يحيى على مقربة من الموضع الذي عسكر فيه صالح بن علي لتاقي الامويين ، فلما قرب الميعاد المضروب وتوافى بنو أمية الى صالح تريث يحيى عن الذهاب لشك خالجهُ وأرسل رسولاً من قبله يستطلع حالتهم فوافق الرسول القوم يقتلون فعاد مسرعاً الى سيده الذي أخذتهُ الدهشة وامتزج عليه الامر ولم يتفق له هرب حتى قربت الخيل من القرية وغشي وقتل ، ولحسن حظ الامير عبد الرحمن انهُ كان في ذلك اليوم غائباً في الصيد ، ولما وافاه الخبر وقد أقبل المساء استتر في بردة الليل واوصى ان يتبعهُ اخناه ام الاصبع وامة الرحمن وابنهُ سليمان واخوه الصغير الى منزل له في قرية قريبة من الفرات ، ولما وصل القرية جاءته عائلته وكان لا ينوى اطالة المكث وانما كان يريد التجهز للرحلة الى أفريقية

ومن ذلك الوقت تبتدىء قصة عبد الرحمن العجيبة وروايتهُ الحافلة بمدهشات الوقائع ونادر المفاجآت والتي نرى فيها تعبيس الحظ وابتسامه وإدباره وإقباله وتعاسر الايام وتياسرها ، وانها لرواية حقيقية مبوبة الفصول متعددة المناظر مختلفة الشخصيات يتضاءل الى جانبها الكثير من بارع روايات الخيال ، ولنترك عبد الرحمن نفسه يقص علينا أحد الفصول الاولى لتلك الرواية ، قال « اني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه وأنا شديد الرمد ومعي خرقة سوداء أمسح بها قذى عينيّ وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي وهو يومئذٍ ابن أربع سنين او نحوها اذ دخل الصبي من باب البيت فزعاً باكياً فأهوى الى حجري فجعلت أدفعهُ لما كان بي ويأبى الاّ التعلق وهو دهش يقول ما يقولهُ الصبيان عند الفزع فخرجت لأنظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية ونظرت فاذا بالرايات السود عليها منحطة وأخٍ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي النجا يا أخي فهذه رايات المسودة فضربت بيدي على

دنانير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي أخي معي وأعلمت اخواني بتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن ان يلحقنني ومولاي بدر معهن ان سلمت وخرجت فكنت في موضع ناء عن القرية فما كان الا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات فأمرته ان يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري فدل علي عبد سوء له العامل فما راعنا الا جلبة الخيل تحفزنا فخرجنا نشتد على أرجلنا وأبصرتنا الخيل فدخلنا بين أجمة على الفرات واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالاجمة فتبادرنا وسبقناها الى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط ارجعا لا بأس عليكما فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح وسبح الغلام أخي فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات وقصر أخي ودهش فألتفت اليه لأقوي من قلبه وأصيح عليه ليلحقني فاذا هو لما سمع تأمينهم اياه أصغى اليهم وهم يخدعونه عن نفسه وخاف الغرق فهرب من الغرق الى الموت فناديته تقتل يا أخي الي الي فلم يسمعني واغتر بأمانهم وخشي الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم وقطعت أنا الفرات وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري فاستكفه اصحابه عن ذلك فتركوني ثم قدموا الصبي أخي الذي صار اليهم بالامان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافة ومضيت الى وجهي احسب أني طائر وأنا ساع على قدمي فلجأت الى غيضة أشبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ثم خرجت هارباً أؤم المغرب حتى وصلت الى افريقية »

فر عبد الرحمن من هذا المأزق الذي وصفه لنا الى فلسطين حيث لحقه مولاه بدر وسالم خادم شقيقته أم الاصبغ ومعهما جواهر ودنانير للنفقة وسار الثلاثة قاصدين

افريقية حيث النفوذ العباسي قليل الامتداد ومروا بمصر ونزل عبد الرحمن ببلاط عبد الرحمن بن حبيب الفهري أمير المغرب وهو الذي فرّ من الاندلس بعد دخول ابي الخطار اليها وتقلبت عليه الاحوال حتى انتزع امارة المغرب — وقد سبقهُ اليه فل من بني أمية ، وكان عند ابن حبيب يهودي حدثاني قد صحب مسلمة بن عبد الملك وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من ابناء ملوك القوم واسمه عبد الرحمن وهو ذو ضفيرتين يملك الاندلس ويورثها عقبه ، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين رجاء ان تناله الرواية ، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر الى ضفيرتيه قال لليهودي « ويحك هذا هو وأنا قاتله » ، وكان اليهودي يضمر الولاء للامويين ويرجي خيراً من وراء عبد الرحمن الاموي ويحرص على بقائه وساءه ان تكون نبوءته سبباً لقتله وواتته في هذا الموقف الضنك بديهته الحاضرة فأجاب ابن حبيب قائلاً « انك ان قتلتهُ فما هو به ولحقك اثمه او غلبت على تركه انه لهو فان القضاء لايغالب » فأعجب ابن حبيب بقوة حجة اليهودي وأعرض عن قتل عبد الرحمن وفي نيته ان يعود الى الفتك به في فرصة أخرى وثقل فل بني امية عليه فطرد كثيراً منهم مخافة طموحهم وتجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد أستجارا به فقتلهما وأخذ مالاً كان مع اسمعيل بن ابان بن عبد العزيز وغلبهُ على اخته فتزوجها بكرهه وطلب عبد الرحمن فحذره احد اصدقائه في الوقت المناسب فاستخفى وفر من وجهه وأخذت تتقاذفهُ الانحاء وتتذبذب به البلاد ولاذ بأشد جهات افريقية نبواً عن العمران واستعصاء على الحضارة وجعل عبد الرحمن ابن حبيب جائزة كبيرة لمن يأتي برأسه فالتجأ الى البدو حيث كانت رسل ابن حبيب تقتفي اثره، وفوجيء مرة نازلاً عند احد شيوخ البربر ويدعى وانسوس فخبأتهُ امرأتهُ تكفات البربرية تحت ثيابها ، وقد صبر عبد الرحمن في غضون ذلك صبراً جميلاً واحتمل

شظف العيش وغضاضة لبن النياق والتبلغ بخبز الشعيردون تذمر واكتئاب، وأكسبته رقة أخلاقه ورجاحة عقله وشرف مناسبه وصبره على اختبار المحن وغير الدهر وبراعته في الصيد احترام معاشريه من البربر المتجافين عن الحضارة، وفي اشد اوقات حياته ظلاماً واقفاراً كان لايزال يلتمع في أفق نفسه نجم الامل الوقاد وتناجيه أطماعه بارتقاء عرش افريقية، ولم ينطفىء في ناظره ضوء ذلك الامل رغم الزعازع والاعاصير وسحب الاكدار والمخاوف التي كانت تتكاثف حوله وتتراكب في جو مستقبله وافق حياته وكانت مجهوداته لا تزال عقيمة غير مثمرة وحاكم افريقية ما ينفك يبث عيونه ويجد في مطاردته، وبعد ان جول عبد الرحمن في مختلف انحاء افريقية نزل ضيفاً على قبيلة زناتة وهم أخواله وكانت تقيم في جنوب مدينة سبتة على مقربة من البحر المتوسط

كان عبد الرحمن في ذلك الوقت طريداً مشرداً جوابة خاوي الوفاض مهلهل الاثواب غامض الشأن غير موفق المسعى ولكنه مع ذلك لم يكن بالرجل الفض المكسر الهيابة الذي يهزمه الفشل وتهول من جوانبه الحوادث وقد كان هذا الشاب فلتة من فلتات عصره في قوة العزيمة وبعد الهمة ولم يكن من شأنه ولا من شأن قومه الاخلاد الى الضعة والاستكانة الى الخمول فقد كانت تأبى له ذلك ضلاعة في خلق الامويين ونبع من التفاؤل والاستبشار كامن في نفسه كانت تفجره ذكرى نبوءة مسلمة كلما لج به اليأس وألح عليه الاكتئاب والتخاذل، وكان يستنبط الحيل ويرسم الخطط ويدبر الدسائس ويعمل على كسب الانصار لينتزع ملك افريقية من يد ابن حبيب، ولكن طول التجربة وخبرته العريضة بأحوال البربر ويقظة ابن حبيب جعلته يثني عنان الامل الى ناحية الاندلس فصار يترصد أخبارها ويتسقط حوادثها وافتقد في هذا الظرف سالماً مولى شقيقته فقد كان عالماً بالاندلس ولكنه رق عن

احتمال تلك الحياة الممحلة المتقلبة وأخذ يترقب الفرص ويتصيد المعاذير واتفق انهُ كان راقداً ودخل على عبد الرحمن بعض بني عمه فصاح بهِ فلم ينتبه فأمر عبد الرحمن بماء فصب على وجههِ فامتعض وفارق عبد الرحمن ورجع الى شقيقتهِ ام الاصبع بالشام وشق على عبد الرحمن فراقه ، وكانت الفوضى السائدة بالاندلس وضعف حكامها وكثرة الثورات تفسح له الامل وتعده بنصر مبين ، ولما اختمرت الفكرة في ذهنه ارسل مولاه بدراً الى الاندلس وزوَّده بكتاب الى زعيمي الشيعة الاموية بها ، وكانت موالي المروانية المدونة بالاندلس في ذلك الاوان ما بين الاربعمائة والخمسمائة وكانت لهم جمرة وكانت رياستهم الى شخصين وهما ابو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وهما من موالي عثمان بن عفان ، وكانا يتواليان لواء بني أمية يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة البيرة ، وذكر عبد الرحمن أيادي سلفه من بني امية وسببه بهم ووصف لهم ما اصابهُ من الكوارث وقوارع الخطوب وما صنعهُ بهِ عبد الرحمن بن حبيب وغدره بقومه وتعقبه لخطواته وأعلمهم انهُ ان دخل الى يوسف لم يأمن على نفسه وعرض انهُ انما يريد الاعتزاز بهم وان يمنعوه وان تهيأ له ما فيه طلب سلطان الاندلس ان يعلموه وعرَّفهم ان الامر كان لجده هشام فهو حقيق بوراثته ووعدهم باعلاء الدرجة وحسن المنزلة وأشار عليهم بالاستفادة من الشقاق والاحنة بين اليمنية والمضرية .

ولما وصل بدر اسبانيا أرسل الخطاب الى عبيد الله وابي خالد زعيمي الامويين ، فلما قرأه هذان الزعيمان تواعدا على يوم يعقدان فيهِ اجتماعاً يحضره وجوه الشيعة الاموية للمداولة في موضوع الكتاب ، وفي اليوم الموعود حضر أعيان الشيعة وعلى رأسهم يوسف بن بخت وكان من انجادهم وتبادلوا الرأي فيما عرضه عبد الرحمن وتناولوا بحث الخطة التي يسلكونها واستبان لهم ان الامر رغم ما يحفهُ من صعاب وما يحدق بهِ

من اخطار جدير بالمحاولة وكان يعطفهم على قضية عبد الرحمن شعور الموالي بواجبهم نحو سادتهم فقد كانت صلة المولى بسيده شديدة الشبه برابطة القرابة وكان فرضاً على اولاد الموالي ان يخلصوا لاولاد من اعتقوا رقابهم ومنحوهم الحرية والخلاص ، وقد كان الرأي الذي انتهوا اليه لا يخلو من التأثر بدافع المصلحة لانهُ اذا عاد السلطان الى الامويين واصبحت مناصب الدولة وقفاً عليهم فانهم سيشركون معهم فيها الموالي ، ومن ثمَّ فالسعي لتنويل عبد الرحمن غايته فيه خير لهم واعلاء شأنهم وقدرأوا مشاورة الصميل في الامر قبل تقرير الخطة التي يتبعونها وكان الصميل اذ ذاك مضروباً حوله الحصار في سرقسطة وكان معروفاً انهُ ناقم على يوسف لتقاعده عن نصرته وكانوا واثقين في انهُ لا يظهر على سرهم احداً لمروءته وأنفته ،واجتمع رأيهم على ألاَّ يردوا الى عبد الرحمن جواباً حتى يشاوروا الصميل وكان هذا هو الذي حركهم الى امداد الصميل والاشتراك في الحملة التي قامت بها بعض القبائل المضرية لفك الحصار عنهُ ، وصحبهم بدر ، وخلا الامويون الثلاثة بالصميل وكاشفوه بامر عبد الرحمن وقالوا له انهُ مستتر ببلاد البربر وخائف على نفسه وأطلعوه على الكتاب الذي حمله بدر وقالوا لهُ « لا نقدم على رضى ولا سخط الاَّ برأيك فان ترض أمراً رضيناه وان تسخط سخطناه » وأدرك الصميل خطورة الأمر فقال لهم « دعوني أروى وأنظر » وجمعوا بينهُ وبين بدر فأعطاه عشرة دنانير وشقة خز ولكنهُ لم يعده بشيء

وانصرف الامويون الى منازلهم ومعهم بدر وقفل الصميل الى قرطبة فوجد يوسف يجهز حملته لمقاتلة الثائرين في سرقسطة وذلك سنة ١٣٧ هـ .وخرج يوسف بالناس وبعث الى زعيمي الامويين ابي عثمان وعبد الله بن خالد فقدما عليه فأمرهما ان يدعوا رجالهما فقال لهُ عبد الله « ليس في القوم نهضة ولا قوة على الخروج وكل من كان فيه

منهض قد نهض الى ابي جوشن فتقطعوا وأهلكهم الله بالشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد » فأخرج يوسف اليهما الف دينار وقال لهما « قوياهم بهذه » فقالا لهُ « هم خمسمائة مدون وأين تبلغ هـذه منهم » ؟ وأمسكا عن أخذها لقلتها ، ولما خرجا من حضرة يوسف أجالا الرأي ورأيا ان قبول ذلك المبلغ مما بعينهما فيما يبغيان وان في وسعهما ان يختلقا الاعذار لتخلف رجالهما عن النهوض مع يوسف فعادا ادراجهما اليه وأخبراه بقبولهما المال ، ولما حملا الدنانير عادا الى كورة رية وفرقا جزءاً منها على الشيعة الاموية تقويةً لافرادها واستئلافاً لهم، وخرج يوسف ولم يعرج على شيء ، فلما بلغ جيان أتاه ابو عثمان وعبد الله وهو نازل على مخاضة الفتح ينتظر تمام الناس اليه ، فدخل عليه ابو عثمان فقال لهُ يوسف « يا عبيد الله أين موالينا » ؟ فقال « أصلح الله الامير مواليك ليسوا كغيرهم لا مقام لهم عنك وانما سألوني انظارهم حتى يبلغ الامير طليطلة ثم يلحقونهُ بها لعلهم ان يتناولوا شيئاً من جديد شعيرهم » وكانت سنة ١٣٧هـ . سنة خلف فصدقهُ يوسف ولم يتهمهُ فقال لهُ « ارجع اليهم وليكن منك عليهم ضاغط» وحضر الامويان رحيل يوسف وودعاه ، وعادا ليودعا الصميل . وكان الصميل لادمانه الخمر لا يكاد يبيت الاّ سكران ، فألفياه راقداً ، ولم يستيقظ من نومه الاّ بعد ان تحرك الجيش ومضى الناس ولم يبق غيره وغير حشمه فلما خرج وكانا ينتظرانه تقدما اليه فقال لهما « ما نبأكما وما رجعكما » ؟ فأعلماه بالذي كان من اذن يوسف ليلحقاه ببني أمية في طليطلة فاستحسن ذلك ، وبعد ان سارا معهُ حيناً دنوا منهُ وقالا لهُ « أخلنا نفسك » فنحى أصحابه فقالا لهُ «زيد رأيك في الذي كنا نشاورك فيه من أمر ابن معاوية فان الرسول لم يبرح » فقال لهما « أما اني ما أغفلت ذلك ولقد رويت فيه واستخرت الله وكتمت الامر فما شاورت فيه قريباً

ولا بعيداً وفاء بما جعلتهُ لكما من ستره؛ وقد رأيت انهُ حقيق بنصري حقيق بالامر فاكتبا اليه على بركة الله فاني سأحمل هذا الاصلع - يريد يوسف - على ان يتخلى له عن هذا الامر ويزوجهُ أم موسى — ابنة يوسف وكانت قد أرملت في تلك الايام من زوجها قطن بن عبد الملك — على ان يكون واحداً منا فان فعل قبلنا منهُ وعرفنا حقه ومنته ويده وان كره هان علينا ان نقرع صلعته بسيوفنا » فقبلا يده وشكراه وانصرفا مسرورين آملين

لم يكن الصميل صاحب تفكير وحزم وليس في طاقتهِ تقليب الامور على وجوهها والنظر في أعقابها وانما كان صاحب لهو يعتمد فيما يعرض لهُ من الامور على خاطره السريع وبديهتهِ الحاضرة فلما فاجأه الزعيمان الامويان بالاستفسار عن الرأي الذي استقرَّ عليهِ في مسألة ادخال عبد الرحمن ارتجل الحديث الذي أفضى بهِ اليهما وأيقظ في نفسيهما آمالاً ضخمة ومطامع بعيدة وادعى انهُ قد قتل الامر بحثاً وأوسعهُ تفكيراً ولما خلا بنفسهِ بعد انصرافهما أدرك خطأه وتسرعه ورأى انهُ لو تمَّ الامر لعبد الرحمن فانهُ سيقيم ملكاً بالاندلس ويستأثر بالسلطة وحده ويستبد بالامر وفي ذلك وبال عليهِ وعلى غيره من رؤوس القبائل ورؤساء العشائر فبادر بارسال احد أتباعهِ للحاق بهما وردهما . ولندع أبا عثمان يروي لنا ما حدث . قال « سرنا عنهُ ساعة نحواً من ميل منصرفين فرحين لا نرى الاَّ ان الامر قد تمَّ لنا فاذا نحن بصائح خلفنا ينادي يا أبا عثمان فنظرنا فاذا وصيف لهُ على فرس فوقفنا فقال لنا « يقول أبو جوشن أقيما حتى آتيكما » فأعظمنا اتيانه بنفسه لنكون نحن أولى باتيانه ووالله ما نأمنهُ ثم توكلنا على الله فسرنا فاذا هو قد أقبل على الكوكب بغله الابيض وهو يجنح بهِ فلما رأيناه وحده أمنا وعلمنا انهُ لو أراد مكروهاً ردَّ معهُ أعواناً فنادانا فدنونا منهُ

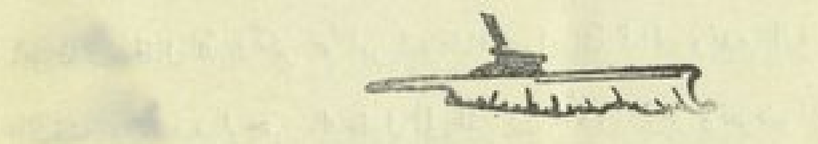
فقال لنا « اني منذ أتيتموني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في ادارة فاستحسنت ما دعوتما اليهِ ثم كان مني اليكما ما كان فلما فارقتكما رويت فيهِ فوجدتهُ من قوم — واستميح القارىء المعذرة بالنيابة عن ابي عثمان في رواية التعبير الآتي الذي استعمله الصميل ولم يجد أقوى منهُ في الاعراب عما ساوره من المخاوف — لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله وهذا رجل قد حكمنا عليهِ مع ما لهُ في أعناقنا والله لو بلغنيا يوتكما ثم رأيت هذا لظننت الاَّ أقصر حتى أرجع اليكما لئلاَّ أغركما، وأنا أعلمكما ان أول سيف يسل عليهِ سيفي فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما »

فقال لهُ ابو عثمان « أصلحك الله ما لنا رأي الاَّ رأيك » فقال « لا تفعلا فوالله ما يسعكما الاَّ النظر لهُ فان أحبَّ غير السلطان فله عندي ان يواسيه يوسف ويزوجهُ ويحبوه انطلقا راشدين » ثم انصرف عنا فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعة بأسرها ورجع رأينا الى إطباء اليمن وادخالهم في رأينا ففعلنا ذلك من فورنا ولم نمر بيماني له بال وثقنا بهِ الاَّ عرضنا عليهِ أمر ابن معاوية ودعوناه اليهِ فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون بهِ سبيلاً الى طلب ثأرهم ثم رجعنا الى جندنا وقد يئسنا من مضر فابتعنا مركباً ووجهنا فيهِ احد عشر رجلاً منا مع بدر وأعطينا تماما خمسمائة دينار لتكون معهُ عدةً للنفقة عليهِ ولفدية البربر »

كانت قد مضت شهور على عبد الرحمن يقاسي مضض الانتظار ويتشوف الى أخبار بدر وكان موزع النفس بين اليأس والرجاء ففي ذات يوم في مطالع الخريف بعد ان قضى صدر النهار في مخبأه فريسة للسأم نهباً للافكار خرج يتمشى على شاطىء بحر الزقاق ينشد العزاء ويلتمس الهدوء ويقلب الطرف في أمواجه المصطفقة الهدارة ثم آوى الى ناحية مهجورة وجلس وقد علت نفسه الكآبة وتأوبته الذكريات وانثالت عليهِ الخواطر

وأخذ يجيل الفكر في مصيره ومستقبله وهل يظل هكذا يتقلب في مطارح البين ومرامي النوى ويعاني حياة التشرد المضنية ويرد العيش كدراً ونق المشرب مرّ المذاق ؟ وتدانى المساء ومالت الشمس للمغيب وساد الكون ذلك السكون الرهيب الذي يفتر الجسم ويكفف من الطماح ويئيم المطامع والشهوات فترق النفس وتصفو وتستيقظ الروح فهدأت نفس عبد الرحمن القوية المتمردة وسكنت روحه القلقة المهتاجة، ولم يكن عبد الرحمن فلسفي النزعة لتغريه تلك اللحظة بالاسترسال في التأملات الرفيعة والتفكير في اسرار الحياة ومعميات الكون فقام يتوضأ ويتأهب للصلاة وحانت منهُ التفاتة الى ناحية البحر فأبصر مركباً يشق الموج ويدنو من الساحل واذا برجل يقفز في الماء ويسبح الى الشاطىء واذا بهذا الرجل مولاه بدر ! لم ينتظر هذا الخادم المخلص الامين دنو المركب والقاء مراسيه بل بادر الى سيده منبسط الاسارير مناًق الوجه يحمل اليه بشائر النجاح ومفرح الاخبار وقص على سيده خلاصة مساعيه ، وخرج اليه من السفينة تمام بن علقمة فجرى عبد الرحمن على طبيعته من التفاؤل فسأله ما اسمك قال تمام فقال له وما كنيتك فقال ابو غالب فقال الله اكبر تمّ امرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقدم اليه بدر سائر من في السفينة . وهمّ عبد الرحمن بالدخول الى المركب فأقبل البربر وتعرضوا دونه ففرقت فيهم صلات على أقدارهم ولما صار بداخل المركب أقبل عات منهم لم يكن اخذ شيئاً فتعلق بحبل الهودج ليعقل المركب فحول رجل اسمهُ شاكر يده بالسيف فقطع يد البربري فهوى الى اعماق اليم وسارت السفينة من شط افريقية فوق سروات الموج تحمل «مخلص الاندلس» وقد ازدانت بالاعلام وهبّ النسيم رطيباً بليل الاذيال وكانت ليلة اضحيانة قمراء ورحب الركب بأميرهم وتجاذبوا اطراف الحديث عن الاندلس واحوالها وحاول عبد الرحمن بذكائه الوقاد ونظره النافذ ان يستعرض الموقف ويلم بتفاصيله وكان اشد

ما يخشاه قبل مجيء بدر ان تخيب آماله وتتبدد احلامه ولكن الآن عاوده الامل وارفضت عنهُ المخاوف ودبت فيهِ حياة جديدة وقد كان يعلم ان طريقه حافل بالمسالك الملتوية والصخور العبلاء وانهُ سيقتحم السبيل الى غايته بين مشتجر الاهواء ومزدحم الشهوات ولكنهُ كان كالمصارع المدمج الخلق المفتول العضل الخبير بأسرار فنه يستهويه التأهب للنزول الى الميدان وخوض المعترك ومساجلة الخصوم ولم تطل هذه الرحلة الهائلة والسفرة القصيرة الواعدة وقد كانت النقود التي وزعت على البربر من بقايا الدنانير التي أعطاها يوسف لزعيمي الامويين وهكذا شاءت الاقدار ان تكون تكاليف حضور عبد الرحمن الى الاندلس من حرّ ماله ليهدم ملكه ويمحو سلطانه واذا تكر الحظ للانسان « أتته الرزايا من وجوه الفوائد »



تمهيد الطريق

عبد الرحمن في الاندلس — المفاوضات بينه وبين يوسف — انقطاع المفاوضات والاستعداد للحرب

رفقت الطبيعة بعبدالرحمن واصحابه فأرسلت ريحاً لينة أعانتهم على التوجه بمركبهم حتى حلوا بساحل البيرة في جهة المنكب وذلك في شهر ربيع آخر سنة ١٣٨هـ. وقت العصر واستقبل عبد الرحمن بها نقيباه ابو عثمان وابو خالد بحفاوة بالغة وسرور مستفيض، وبعد ان أمضى أياماً قلائل في منزل ابي خالد الواقع على مقربة من مدينة لوشة بين مدينتي البيرة وشدونة انتقل الى حصن عبيد الله في طرش واخذت تقبل عليهِ الوفود وتهرع اليهِ الجموع وعرف عبد الرحمن كيف يضبط اهواءه ويحكم عواطفه ويبدو في المظهر الملائم لما يطلبهُ من جسيم الامور فقد قدم له عند نزوله من البحر خمر ليسترد بهِ نشاطه ويستجم قوته فرفضهُ وقال لمن أتوه به «إني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصهُ» فعرفوا بذلك قدره وامتلأت صدورهم بهِ ثقة واعجاباً، وأهديت لهُ بعد ذلك جارية جميلة فنظر اليها وقال «إن هذه من القلب والعين بمكان وان أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبهُ ظلمتها وان اشتغلت بها عما أطلبهُ ظلمت همتي ولا حاجة لي بها الآن وردها على صاحبها»

ومضى يوسف حتى أتى طليطلة وظل اياماً ينتظر قدوم موالي الامويين ولما أملّه

الانتظار قال للصميل « ما أرى موالينا لحقوا بنا » وكان الصميل قد ساوره الشك في علة ريثهم وتقاعسهم عن الحضور ولكنهُ ظل محتفظاً بسرهم ، ولما اكثر يوسف من التبرم لتأخرهم وكان الصميل شديد الظمأ الى الانتقام قال له « انطلق ليس مثلك من أقام على مثلهم واني أخاف فوت الفرصة » وكان ذلك بمثابة اصدار امر ليوسف الضعيف الارادة ، فتقدم الجيش حتى ورد سرقسطة ، وخاف الثائرون كثرة عدده فسعوا في الصلح فرضي يوسف واشترط ان يقدموا له الزعماء القرشيين وهم عامر العبدري وابنه وهب والحباب الزهري ، وكان اكثر الثائرين من اليمنية ولذلك لم يظهروا كبير معارضة في تسليم القرشيين وكانوا يعتقدون ان يوسف لا يشتد في القسوة عليهم لما بينهم وبينهُ من أواصر القربى ووشائج النسب، وعقد يوسف اجتماعاً للمداولة في امرهم فأبدى الصميل ضرورة قتلهم لشدة مقته لهم ولكن كبار قيس أشاروا عليه بألاَّ يفعل خشية ان يستثيروا عداوة قريش واحلافهم وكان اشدهم قولاً في ذلك سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن فلما رأى يوسف اجتماع الرأي على ألاَّ يقتلهم حبسهم وتراجع الصميل مغلوباً على امره ولكنهُ أضمر الحقد للزعيمين اللذين فيلا رأيه وابطلا حجته وكان حانقاً عليهما من قبل لما بلغهُ من ترددهما في الاشتراك في الحملة التي قامت لانقاذه وهو محصور في سرقسطة ، وسنحت له فرصة للتخلص منهما وذلك ان قبائل البشكنس انتقضوا وخلعوا الطاعة فقطع يوسف لهم بعثاً وحرضهُ الصميل على ان يضع عليه ابن شهاب وجعل على خيله ومقدمته الحصين بن الدجن وبعثهم في ضعف ولم يكره عطبهم في تلك البلاد الملأى بالجبال الوعرة وساروا فلما امعنوا رجع يوسف قافلاً في قليل من الناس حتى بلغ وادي شرنبة فأدركه الرسول بهزيمة ابن شهاب وقتله وقتل عامة الناس معه وان فلهم مع الحصين بسرقسطة

عند ابي زيد عبد الرحمن بن يوسف وكان يوسف خلفه على سرقسطة فسرّ ذلك الصميل في صباح اليوم التالي قال ليوسف « أما ابن شهاب فقد اراح الله منه فقدم هؤلاء واضرب أعناقهم » واستجاب له يوسف كعادته فاستدعاهم وامر بهم فضربت اعناقهم ولما فرغ منهم وضع الطعام وجلس يأكل هو والصميل وكان يوسف كاسف البال لقس النفس لان ضميره اخذ يؤنبهُ ويخزه لقتل القرشيين وثقل على نفسه مصرع ابن شهاب وفناء الحملة التي غرر بها وارسلها الى الموت المحقق وكان يشعر انه قد أجرم جرماً فظيعاً وأساء كل الاساءة فلم يستطع ان يقبل على الطعام ، وكان الصميل على نقيضه طرب النفس مستخف الوقار ، ولما رأى انكسار يوسف واطراقه قال له « لقد قتل ابن شهاب وقتلت عامراً والزهري هي والله لك ولولدك الى الدجال ، من هذا ينازعك ؟ » ولكن هذا الكلام لم يهدىء من ثائرة يوسف ولم ينف عنهُ الوساوس ثم خرج عنهُ ودخل رواق ابنتيه ليقيل واضطجع مفكراً فيما صنع ووضع رجله اليمنى على اليسرى وهو مستلق مفكر ولم تمر عليه دقائق معدودات حتى استرعى سمعه صياح اهل المعسكر « رسول من قرطبة » فقعد يوسف واستدعى وصيفاً له وسأله عن جلية الامر فقال لهُ الوصيف « نعم والله فلان — وكان غلاماً له — على بغلة ام عثمان » — وهي ام ولد يوسف وصاحبة سلطانه — وكانت البرد قد قطعها الجوع وكلب الشتاء ، ولم يرع يوسف الاّ دخول الرسول عليه ومعهُ قطعة فيها ان ابن معاوية قد دخل ونزل بطرش عند عبد الله بن عثمان واصفقت معه بنو امية وأن خليفتك على البيرة زحف اليه بمن خفّ من اهل الطاعة ليخرجهُ فهزم وضرب اصحابه ولم يقع قتل

كان لهذا الخبر وقعٌ شديدٌ في نفس يوسف ضعضع عزيمته المتخاذلة فدعا الصميل فأتاه مذعوراً من بعثته في وقت لم يكن يبعث فيه في مثله ، وكان قد بلغهُ قدوم الرسول

الا انهُ لا يعلم ما جاء بهِ فلما دخل على يوسف قال له « أصلح الله الامير ما أقلقك في هذا الوقت الاحدث ! فقال يوسف « نعم حدث والله جليل واني اخاف ان يكون الله قد ازل النقمة علينا بقتل هؤلاء فقال له الصميل وهو يحاول ان يوحي اليهِ الطأنينة ويلهمهُ السكينة « ولاهذا كله فقد كانوا أهون على الله فما هو » فقال يوسف لكاتبه « اقرأ عليه يا خالد كتاب ام عثمان » فلما وقف الصميل على فحوى الكتاب لاحت في وجهه أمارات الاهتمام وقطب حاجبيه وقال « خطبٌ جليلٌ والرأي ان نقطع اليهِ من فورنا هذا بمن معنا من الناس فاما قتلناه واما شردناه فهرب فان هرب لم يستقلها أبداً » وأقره يوسف على ذلك ولم يضبطوا سرهم فشاع الخبر في الناس وقد قتل من قتل منهم مع ابن شهاب وبقي فلهم في سرقسطة وتصايحوا « غزوتان في غزوة » ولما امسوا لم يبق معهم من اليمن عشرة رجال وبقي نفرٌ من قيس خاصة من أجل الصميل وقليل من قبائل مضر وقد ملوا السفر واقبلوا على يوسف يهونون له الامر ويشيرون عليه بالمضي الى قرطبة والصميل على رأيهِ الاول حتى وقع المطر وأقبل الشتاء وفاضت الانهار بالمياه فترك المسير الى ابن معاوية ومضى الى قرطبة ، وجعل الصميل يحثهُ على اخماد الحركة في اول امرها فقال له يوسف « لقد انفضنا من المال وانضينا الظهر ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه ولكن نسير الى قرطبة فنستأنف الاستعداد لهُ بعد ان ننظر في امره ويتبين لنا خبره فلعله دون ما كتب الينا » وأدرك الصميل ان الامر على خلاف ما يتصوَّر يوسف وأغضبتهُ مخالفة الامويين لنصيحتهِ فقال ليوسف « الرأي ما أشرت بهِ عليك وليس غيره وسوف تتبين غلطك فيما تتكبهُ »

ولما استقرَّ يوسف بقرطبة خشي عاقبة المطاولة وأثر فيهِ الحاح الصميل ولكن أحد مستشاريهِ قال لهُ « ان الرجل لم يظهر طلب سلطانك وانما جاء يطلب معاشاً

وأمنا فان عرضت عليه المصاهرة وان توسع عليه ألفيته مسرعاً الى طاعتك » واسترجح يوسف هذا الرأي فأوفد الى عبد الرحمن وفداً فيه خالد بن يزيد كاتبه ومولاه وكان موضع ثقته وصاحب رأيه بعد الصميل وعبيد بن علي من كبار زعماء القيسية وعيسى ابن عبد الرحمن وهو من موالي الامويين الذين كانوا في خدمة يوسف ، وبعث معهم بكساء فاخر وفرسين وبغلين وجاريتين والف دينار وكتب اليه كتاباً حملوه مع الهدايا ، وساروا حتى بلغوا ارش في أدنى كورة رية وهناك قال لهم عيسى بن عبد الرحمن « بأي رأي يعيش يوسف والصميل وأنتم ؟ أرأيتم ان بلغنا بهذه الهدية فكره ما جئنا به أليس ان أخذه ما معنا مما يقوى به ويوهن صاحبنا » فأبصر القوم عوار رأيهم فقالوا له أقم بما معنا ونسير نحن فان أعطانا بيعة ورضي بما جئنا به سرحنا اليك رسولنا لتقدم علينا بما معك وان يكون غير ذلك فارجعه الى الامير فهو أحق بماله »

وسار خالد وعبيد حتى قدما على ابن معاوية بطرش عند ابي عثمان وعنده جماعة بني أمية ورجال من اليمن يختلفون اليه ويعتقبون المقام عنده. ولما سمح لهما بالمثول بين يدي الامير اختطب عبيد وخالد كل واحد حذو صاحبه ودعواه الى الألفة ومصاهرة يوسف وقالا ان يوسف لا يزال يذكر أيادي سلفه على جده عقبة بن نافع وانه حريص على توثيق الألفة بينه وبين الامير على شريطة ألا يطالب بالولاية والسلطان وان يكتفي بما كان سابقاً من أملاك جده هشام وذكرا ان يوسف قد أرسل معهما هدية قد تركاها في ارش وانها آتية عما قريب وان يوسف مستعد للترحيب به والحفاوة بمقدمه في قرطبة

وراق هذا العرض الخلاّب الشيعة الاموية وأعجبتهم هذه الشروط وكانت حماستهم قد بدأت تفتر وأدركوا ان اليمنيين حريصون على الانتقام من خصومهم ومنافسيهم

ولكنهم غير شديدي التعلق بالغاية التي يسعى لها الامير نخشوا خذلانهم وكانوا يؤثرون الاتفاق مع يوسف وانبرى أحدهم وقال لرسولي يوسف « ما أحسن ما عرضتما وما جاء الاً طالباً لموروثه » ، وأخرج خالد كتاب يوسف وناوله لعبد الرحمن فدفعهُ عبد الرحمن وقد لزم الصمت الى ابي عثمان وقال لهُ « اقرأه وأجب فيه بما تعلم من رأينا » وكان الكتاب من إنشاء خالد بن يزيد وفيه يقول عن لسان يوسف « أما بعد فقد انتهى الينا نزولك بساحل المنكب وتأبش من تأبش اليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الايمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا وبه جلَّ وعلا نستعين عليهم ، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بالامن خوفاً وجنحوا الى النقض والله من ورائهم محيط ، فان كنت تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت اليه أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معي ان أردت او بحيث تريد ثم لك عهد الله وذمته بي ألاّ أغدرك ولا أمكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره » ولما أتمّ أبو عثمان قراءته همَّ بكتابة الرد عليه فقد القى عبد الرحمن على كاهله هذه المسؤولية وكان عبد الرحمن غير مستريح لما اظهره الامويون من الرضى لانهُ لم يكن كل همه ان يصبح من اصحاب الضياع الواسعة والثراء الجم وانما كان يسعى الى المجد ويريد الملك ولكنهُ لم يكن واثقاً من رسوخ مكانته ولذا رأى من الحزم ان يترك الامر لاصحابه وشيعته واستسلم الى تضحية آماله وتوديع أحلامه ولكن حدث ما لم يكن منتظراً وكأنما كانت الاقدار تزيل من طريقه الآفات المعترضة

لم يكن خالد رسول يوسف ومنشىء كتابه عربي الاصل وانما كان من اصل اسباني وكان ابواه مسيحيين ، ثم ترك ابوه المسيحية وأسلم وتسمى زيداً ولذا اطلقهُ

سيده يوسف ونشأ خالد في خدمة يوسف وكان ذكيًا وافر اللب حسن الاستعداد للكتابة والانشاء فتضلع من الادب وتروى من فنونه وحذق الكتابة وملك البيان فاتخذه يوسف كاتباً لهُ وكانت هذه منزلة كبيرة ومفخرة يزدهي بها لان الامراء كانوا يتنافسون في انتقاء الكتّاب المبرزين المشهود لهم بالفحولة والاقتدار واكتسب خالد بذلك نفوذاً واسعاً وصارت له على يوسف سيطرة ملحوظة وكان يتولى تدبير أمره وتسيير شؤونه في غيبة الصميل ، وكانت العرب تحسد خالداً لمكانته من يوسف وتقرفهُ بضعة الاصل ، وكان خالد متكبراً تيّاهاً يبادلهم احتقاراً باحتقار ويكيل لهم الصاع صاعين ، ولم يكن ابو عثمان متمكناً في صناعة الانشاء وتحرير الرسائل وكان السيف في يده أجرى من القلم ، فلما رأى خالد ابطاءه وتعثره في الرد على كتابه وكان مزهوًا بما يتضمنهُ من متخير الالفاظ وأنيق العبارات التفت اليه ساخراً متهانفاً وقال له « لتعرقنَّ إبطاك قبل ان تحير فيهِ جواباً » فاستشاط ابو عثمان غيظاً وكان بطبيعتهِ غضوباً حاد الاخلاق ورفع يده وضرب بالكتاب وجه خالد وقال له « يا . . . . لا تعرق لي فيهِ إبط ولا أحير فيهِ جواباً » وصاح برجاله « خذوه » فأخذوه وكبل من ساعته ، والتفت الى عبد الرحمن وقال له « هذا اول الفتح وهذا الرجل هو منبع الحكمة عند يوسف وبدونهِ لا يدبر شيئاً » وانتظر عبيد — الرسول الآخر — حتى هدأ غضب عبيد الله وقال له « يا أبا عثمان هذا رسول ولا سبيل اليهِ » فقال لهُ عبيد الله « أنت الرسول فارحل في سلام وهذا متعد وقد بدأ بالشتيمة والانتقاص ابن الخبيثة العلج » ثم سرحوا عبيداً وحبسوا خالداً ، وهكذا قطعت المفاوضات من جراء غرور خالد واعتزازه بانشائه وسوء تصرفه وسرَّ عبد الرحمن بما حدث وانتعشت آماله ، ولما رحل عبيد الذي كان يجله عبيد الله لانهُ زعيم قبيلة قوية والتي خالد في

السجن وذكروا الهدايا التي تحدث عنها الرسولان وعزموا على الاستيلاء عليها ما دامت الحرب قد اعلنت على يوسف فارسلوا ثلاثين فارساً لاغتصابها فوجدوا الخبر قد سبق الى عيسى فطار راجعاً بكل ما معه وعادوا فارغي الايدي

ولما روى عبيد ما حدث عند عودته ليوسف والصميل وما شاهده في طرش هاض ذلك يوسف وجعل الصميل يثرب عليه في خلاف رأيه اذ لم يمض اليه من حيث بلغهُ خبره . وهكذا استدار الحظ فأصبح الأفاق الطريد الذي كان يتهدده القتل في كل لحظة وبكل مكان محفوفاً بأنصار اشداء وشيعة مخلصة تحاول ان تضفي عليه برد الامارة وترفعه الى ذروة القوة والنفوذ .

تدمير المعارضة

معركة صحراء الصارة — الصلح مع يوسف والصميل — هرب يوسف وعودته الى المقاومة — انهزام يوسف وقتله — مصرع الصميل

كان شتاء ذلك العام قارًّا شديدًا الصرد فاضطر الفريقان الى الترقب ريثما تذهب صبّارته ، وفي خلال تلك الفترة بث عبيد الله الدعوة لعبد الرحمن بين العرب والبربر فأجابته اليمن بأسرها وجماعة من رؤساء القيسية لانحرافهم عن الصميل ويوسف منهم جابر بن العلاء بن شهاب والحصين بن الدجن لما كان في نفسيهما مما صنع الصميل ويوسف بابن شهاب وتطويحهما به في المهالك ، وثقيف لولائها القديم للامويين وأصفقت مضر كلها مع يوسف وكانت قوة عبد الرحمن اكثر عدداً ولكن عبد الرحمن كان لايستطيع ان يعتمد الاعتماد كله على اليمنية لان قضيته لم تكن تعنيهم وانما كانوا يرمون الى الانتقام من المضرية قبل كل شيء ، أما انصار يوسف فكان يجمعهم غرض واحد وهو الحرص على الحالة الراهنة ، وانقسم البربر قسمين قسم يناصر يوسف وقسم يعاضد عبدالرحمن

وطويت سبرات الشتاء وتبلج الربيع على البلاد فأصحت السماء وصفا الجو وذاع في طرش ان يوسف يتأهب للحرب فأجمع القادة على ان يتجهوا نحو الغرب ليستنفروا القبائل اليمنية التي يمرون بها وليستولوا على مواقع صالحة لمهاجمة يوسف ، ولما ساروا حتى أطراف شدونة تسرع اليهم حماة الجند ، ثم ساروا الى اشبيلية وتلقى عبد الرحمن

بها رئيس عربها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي واجتمع الرأي على أن يقصدوا بعبد الرحمن دار الامارة في قرطبة فلما نزلوا بقرية قلنبيرة من اقليم طشانة قالوا «كيف نسير بأمير لا لواء له ولا علم نهتدي اليه» فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوا عليها فكرهوا ان يميلوا القناة لتعقد تطيراً فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين فصعد رجل فرع احداها فعقد اللواء والقناة قائمة

وبلغ يوسف خبر تحرك جموع عبد الرحمن فأقبل اليه من قرطبة وأخذ طريق الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير بينما كان عبد الرحمن يسير بجيشه في الضفة اليسرى، وكانت المجاعات قد تعاقبت قبل ذلك على الاندلس ست سنين فأورثت اهل الاندلس ضعفاً وهزالاً، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة منذ خرجوا من اشبيلية الا الفول الاخضر الذي كانوا يجدونه في طريقهم، وكان عبد الرحمن يريد أن يفجأ قرطبة وقد تركتها الجيوش لانه كان يعلم أن عامة أهلها من موالي الامويين، وكان يوسف يرمي الى الاستيلاء على اشبيلية، وسرعان ماتلاقى الجيشان والنهر حاجز بينهما وكان زاخراً طامي العباب، ووقف الجمعان يتراقبان وينتظران هبوط مياه النهر، وحاول عبد الرحمن ان يبدر يوسف الى قرطبة فأوقد نيرانه ليلاً ليوقع في روع يوسف انهُ يعتزم الراحة والاقامة وأمر عبد الرحمن الناس بالحركة في جوف الليل ليسري ويصبح على باب قرطبة وقال لمن معه «ان كلفنا الرجالة ان يسيروا معنا انقطعوا ولم يلحقوا بنا ولكن يأخذ كل واحد منكم رديفه» ثم التفت الى غلام قد طرَّ شاربه وقعت عينه عليه فقال له «من تكون يافتى» فقال له سابق بن مالك ابن يزيد فقال عبد الرحمن — وجرى في ذلك على مذهبه في التفاؤل بالاسماء — «سابق سبقنا ومالك ملكنا ويزيد زدنا هات يدك انت رديفي»

وشعر يوسف بحركة عبد الرحمن تحت ستار الظلام فعاد أدراجه ليصد الهجوم على قصبة ملكه ، وأصبح الجيشان كفرسي رهان ، ورأى عبد الرحمن ان خطته قد فشلت وإن يوسف يسبقهُ في هذا المضمار فحاول ان يخدعهُ فأمسك عن المسير فتوقف يوسف وأخذ يرقب حركاته من الضفة الاخرى ، وعاود عبد الرحمن المسير فسار يوسف بسيره حتى حل صحراء الصارة غربي قرطبة ، ونال من جيش عبد الرحمن الكلال والجوع لقلة الميرة ، وكان رجاله قد رجوا دخول قرطبة والتوسع في معاشها والانتصار بأهلها فكسرهم هذا الاخفاق وجعلهم يتذمرون ونقص النهر يوم الخميس لتسع ليال مضين من ذي الحجة يوم عرفة ، ولما رأى ذلك عبد الرحمن اراد ان يستوثق من انصاره ويختبر رغبتهم فقال لهم « انا لم نجيء للمقام وقد دعانا هذا الرجل الى ما علمتم وعرض ما سمعتم ورأيي لرأيكم تبع فان كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فاعلموني وان كان فيكم جنوح الى السلم والصلح فاعلموني » فأصفقت اليمنية بأسرها على الحرب، وكان في موالي بني أمية بعض الحرص على الصلح ولكنهم لما رأوا تصميم اليمنية عدلوا عن ذلك وشايعوهم على رأيهم وقال عبد الرحمن لاصحابه اي يوم هذا » قالوا «الخميس يوم عرفة» فقال « فالاضحى غداً يوم الجمعة والمتزاحفان أموي وفهري والجندان قيس ويمن قد تقابل الاشكال جداً وارجو انه اخو يوم مرج راهط فابشروا وجدوا » فذكرهم يوم مرج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جده مروان بن الحكم وبين الضحاك بن قيس الفهري وكانت يوم جمعة ويوم اضحى فدارت الدائرة لمروان على الضحاك فقتل الضحاك وقتل معهُ عدد كبير من قبائل قيس واحلافهم

واراد عبد الرحمن ان يعبر النهر ليلتقي مع يوسف في معركة ، ولما كان يخشى تعرض جيش يوسف لجنده وهم يجيزون النهر بدأ مع يوسف مفاوضات ليخدعهُ وخدع

يوسف ورخص له في عبور النهر لتتم المفاوضة وامد جيشه بالمؤونة وكان عبد الرحمن قد أعدَّ للحرب عدتها واستكمل أهبتها وسهر الليل كله على نظام جيشه ولما أصبح يوم الاضحى تزاحف القوم والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، فلما اشتدَّ الامر نظرت اليمنية الى عبد الرحمن على فرس وقد نزل حوله مواليه وحمل رايته عبيد الله فقال بعضهم لبعض « هذا فتى حديث السن تحتهُ جواد وما نأمن اول ردعة يردعها ان يطير منهزماً على جواده ويدعنا » فأتى عبد الرحمن احد مواليه فأخبره بمقالتهم فبادر عبد الرحمن باستدعاء أبا الصباح فأقبل اليه فقال لهُ « ليس في عسكرنا بغل أوفق من بغلك ، وان هـذا الفرس يقلق تحتي فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوسي فخذ فرسي وهات بغلك واني أحب ان تكون تحتي دابة تُعرف ان حال الناس » وكان بغلاً أشهب قد ابيض — فاستحيا ابو الصباح وقال « او يثبت الامير على فرسه » فقال عبد الرحمن « لا والله » وركب البغل فاطمأنت اليمنية وتراموا عن خيلهم وحملوا عليها اخفاءهم واشتدَّ القتال وانتصرت جيوش عبد الرحمن واخترقت فرسانه الجناح الايمن لجيش عدوه وهزمت القلب وقتل عبدالله بن يوسف وجوشن بن الصميل وانهزم يوسف وصبر الصميل بعده معذراً وعشيرتهُ يحفونهُ فلما خاف انهزامهم عنهُ تحوَّل على بغله الاشهب معارضاً لعبد الرحمن فمرَّ بهِ ابو عطاء فقال لهُ « يا أبا جوشن احتسب نفسك فان الاشباه أشباهاً أموي بأموي ونهري بنهري وكابي بكابي ويوم أضحى بيوم أضحى ويمني بقيسي والله اني لأحسب هـذا اليوم بمثل مرج راهط سواء » فقال لهُ الصميل « كبرت وكبر علمك الآن تتجلي الغماء وسحرك منتفخ » فانثنى ابو عطاء لوجههِ منقلباً وانهزم الصميل وأخذ طريقه الى جيان وذهب رجلان من طي الى داره بشقندة وانتهبا ما في الدار والصميل مشرف على ذلك من سفح جبل

مطل وكان فيها وجداه لهُ تابوت فيهِ عشرة آلاف دينار فلم يمنعهُ قتل ابنه وما نزل بهِ من الهزيمة من ان يفخر قائلاً

ألا ان مالي عند طي وديعة ولا بدَّ يوماً ان ترد الودائع
سلوا يمناً عن فعل رمحي ومنصلي فان سكتوا أثنت عليَّ الوقائع

وهزم سائر الجيش وقتلوا قتلاً ذريعاً ، وسار عبد الرحمن حتى دخل قصر قرطبة وأقبل عسكره فانتهب عسكر يوسف وأكلوا الطعام الذي كان قد أعده ، وانتهكت بعض رجال اليمنية حرمة منزل يوسف وسلبوا ونهبوا فخرجت الى عبد الرحمن زوجة يوسف وابنتاه وقلنَ لهُ « يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله اليك » فقال « افعل » ودعا صاحب الصلاة وكان مولى للفهري فأمره بضم النساء الى داره وردَّ لهم ما قدر على رده وبات هو الليلة في القصر وأهدت اليهِ ابنة الفهري جارية تسمى حلل وهي أم ولده وخليفته هشام وغضبت اليمنية لانهُ ردهم عن عائلة يوسف وكفهم عما يريدون من فضيحتهم وقالوا « عصب » ، وقال بعضهم لبعض « ويحكم قد فرغنا من أعدائنا من مضر وهذا ومواليهِ منهم فلنقتل هذا الفتى المقدامة فيصير الامر لنا نقدم رجلاً منا ونحل عنهُ المضرية ويصير لنا فتحان في يوم واحد » وجاء أحدهم فانتصح ابن معاوية وأعلمهُ بما تشاور فيهِ القوم من قتله وقتل مواليه وقال لهُ احترس وضم اليك مواليك وأعلمهُ ان أبا الصباح كان أشد الناس قولاً في ذلك ولما علمت اليمنية بذيوع سرهم رجعوا عن نيتهم فأضمر عبد الرحمن الكيد لابي الصباح وأرجأ الانتقام منه الى الفرصة المناسبة واحتاط لنفسهِ وسار الى الجامع وخطب خطبة الجمعة ووعد الناس باجراء العدل واقامة القسطاس

وأصبح عبد الرحمن أمير قرطبة ، ولم ييأس الصميل ويوسف من اعادة الكرة ،

وكانا قد اتفقا قبل ان يركنا الى الحرب على ان يذهب يوسف الى طليطلة فيحشد من أهلها جيشاً ويذهب الصميل الى جيان ليستنهض المضرية ويستجيش الجموع واجتمعت القوتان وتوافت اليهما جموع من سرقسطة واضطرّ الحاكم الذي اختاره عبد الرحمن لجيان — وهو جابر بن العلاء بن شهاب — الى الانسحاب والاحتماء بحصن منتشية واعتصم حاكم البيرة بالجبال ، وبلغ عبد الرحمن نزول يوسف والصميل بالبيرة فهمَّ بالخروج اليهما ولما علم يوسف بذلك امر ابنه ابا زيد ان يسير الى قرطبة من طريق مخالف للطريق الذي يسلكهُ عبد الرحمن وان يستولي على العاصمة وكانت حاميتها قليلة ، وسار عبد الرحمن يريد يوسف بالبيرة وخلف على قرطبة أبا عثمان في ناس من يمن قرطبة وبني أميتها وخالفه عبد الرحمن بن يوسف الى قرطبة فأغار عليها وحصر ابا عثمان في صومعة المسجد الجامع التي في القصر واستنزله بعهد ألاَّ يقاتلهُ وكبلهُ وانطلق به الى ابيه في البيرة ، وكان يوسف يرمي بهذه الخطة الى ارغام عبد الرحمن على الارتداد الى قرطبة ليجد براحاً لاستجماع قوته وتنظيم جيوشه وقد نجحت الخطة وعاد عبد الرحمن لاسترداد قرطبة وكان عبد الرحمن بن يوسف قد تركها لما علم برجوعه لمقاومته ، وسار عبد الرحمن بن معاوية بعد ذلك الى البيرة لا يعرج على شيء ، ولكن حدث ما لم يكن منتظراً فقد شعر يوسف والصميل بضعفهما فمالا الى الصلح وراسلا عبد الرحمن وعرضا عليه ان يسلما له الامر على ان يؤمنا في اموالهما ومنازلهما وان يؤمن الناس كلهم وتهدى امور الرعية فأجابهما عبد الرحمن واصطلحا وكتب بينهما كتاب صلح وسرح بن معاوية خالد بن زيد وسرح يوسف ابا عثمان ، واشترط عبد الرحمن على يوسف ان يرتهنه ابنه عبد الرحمن ابا زيد ومحمداً ابا الاسود فقبضهما على ألاَّ يحبسهما الاَّ حبساً جميلاً معه في قصر قرطبة حتى تهدأ الامور وتعود الى نصابها فاذا صلحت

الاحوال واستقامت ردها وعاد عبد الرحمن الى قرطبة وقد ركب يوسف عن يمينه والصميل عن يساره وأحسن الصميل الصحبة وأجاد الادب فكان عبدالرحمن اذا ذكر الصميل يثني عليه ويقول « لقد صحبني من البيرة الى قرطبة ما مست ركبته ركبتي ولا تقدم رأس بغله رأس بغلي ولا استفهمني في حديث ولا افتتح حديثاً بغير ان يسأل عنهُ ، ولم يقلد عبد الرحمن يوسف مثل هذا الثناء — ونزل عبد الرحمن قصر الامارة بقرطبة ونزل يوسف بمنزله ببلاط الحر وكان قبله للحر بن عبد الرحمن الثقفي احد ولاة الاندلس السابقين ، وسارت الامور على مايرام واحسن عبد الرحمن معاملتهما ورجا جماعة من أعداء يوسف ان يضيق لهم عليه عبدالرحمن فادعوا رباعه وامواله وسألوه ان يرده واياهم الى القاضي وهو يومئذ يزيد بن يحيى وكان أهل الدعوات قد رجوا ان يحيف لهم القاضي لما كان في نفسه على يوسف والصميل من قتلهما اليمن يوم شقندة فضم اليه يوسف والصميل وأهل الدعوات فلم يصنعوا شيئاً وعجزهم لهما، واقام يوسف والصميل على احسن حال يختلفان الى عبد الرحمن ويحضرهما الرأي مرة بعد مرة ، وعمد عبد الرحمن الى استدعاء قومه فتتابعت اليه ناس من بني أمية ومواليهم وكثروا وكان فيمن دخل في سنة ١٤٠هـ. عبد الملك بن عمر بن مروان ويقال له المرواني ودخل جزي بن عبد العزيز بن مروان ومعهما اولادهما وبناتهما ، ووجه عبد الرحمن الى الشام في طلب اختيه شقيقتيه وبعث مع الرسول مالاً فلما قدم عليهما قالتا له « السفر لا تؤمن آفته وقد أمنا بحمد الله ووسعنا فضل القوم وحسبنا ان نكون في عافية » فانصرف عنهما ، وكانت بقرطبة بيوتات من بني هاشم وبني فهر وقبائل قريش وغيرهم قد نالوا مع يوسف رفعة ومنزلة فانقطع ذلك عنهم ، فكانوا يختلفون الى يوسف ويلقون اليه التحريض ويوغرون صدره ويندمونه على ما كان ولم يزالوا به حتى انقاد لهم واعتزم العودة

الى تحكيم السيف وكاتب بعض زعماء القبائل فقالوا له والله ما نرجع الى الحرب بعد السلم ، وكره الصميل وقيس ذلك وقالوا « حسبنا قد قضينا الذمام » فلما يئس منهم كاتب اهل ماردة ولقنت فأجابوه وكان له فيهما شيعة قد نفرت اليهما والى طليطلة يوم الصارة ، ولما صالح عبد الرحمن رد بعضهم وترك بعض بناته مع ازواجهن ومن استثقله من عياله معهن ،وأتته كتبهم يدعونه الى انفسهم فهرب سنة ١٤١ هـ . حتى نزل ماردة ، فلما علم ابن معاوية بهربهِ اتبعهُ الخيل فلم تدركهُ ، واستدعى عبد الرحمن الصميل ووبخهُ توبيخاً شديداً وأغلظ له القول وقال له « اين توجه ؟ » فقال الصميل « لا اعلم » فقال له عبد الرحمن « ما كان ليخرج حتى يعلمك وقد كان لنا عليك النصح ومع ذلك فان ولدك معهُ وأكد عليهِ في ان يحضره فقال له الصميل وقد تملكه الغضب « لو انهُ تحت قدمي هذه ما رفعتها لك فاصنع ماشئت » فأمر عبد الرحمن بحبسه فحبس مع ولدي يوسف ابي الاسود المعروف بعد بالاعمى وعبدالرحمن ، وحاول عبد الرحمن بن يوسف الهرب من السجن فأثقله اللحم فانبهر فرد الى السجن وأنف الصميل من الهرب فأقام بمكانهِ

ولما مضى يوسف الى ماردة حشد أهلها — عربها وبربرها — ثم أقبل الى لقنت نخف اليه اهلها وأقبل الى اشبيلية وكان واليها عبد الملك بن عمر المرواني وانتفخ عسكر يوسف وصار في نحو عشرين الفاً او اكثر . فزحف الى المرواني بأشبيلية وكان عبد الرحمن قد عسكر في قرطبة ينتظر الاجناد حتى توافوا اليهِ وتتامت حشوده فتحرك بمن معهُ ، وأقبل يوسف اليهِ غير عابىء بمن خلفه ، وكان المرواني في اشبيلية منتظراً لولده عبد الله وكان والياً على مورور واعتقد عبد الله ان اباه محصور في اشبيلية فأسرع لنجدتهِ وصمم الاثنان — الاب والابن — على مهاجمة يوسف ،وبلغ عبد الرحمن ما كان من تجرد يوسف للقائهِ فسار حتى بلغ حصن المدور ، وقيل ليوسف « هذا

المرواني قد نهد اليك وركب ساقتك » فصرف اليه جموعه واستعجل مكافحته خوفاً من ان يأتي عبد الرحمن من وجه والمرواني من وجه آخر، وتقاعس المرواني رجاء ذلك فلم يمكنهُ يوسف من التقاعس وأرغمهُ على الاشتباك معهُ في معركة والتقيا من ساعتهما، فحين التقيا نزل رجل من موالي فهر من البربر من ساكني ماردة نجد معروف بالشجاعة فدعا الى النزال والبراز فلم يجرؤ احد على النزول اليه، فكبر ذلك على المرواني فالتفت الى ابنهِ عبد الله وقال له « هذا اول الشر ونحن في قلة فازل على عون الله » فنهض عبد الله الى النزال فأقبل اليهِ مولى له من موالي آل مروان بن الحكم حبشي يكنى بأبي البصري فقال له « اي شيء تريد يا مولاي ؟ » فقال له « اريد النزول الى هذا » فقال له « انا أكفيك ذلك يا مولاي » ، ونزل أبو البصري الى البربري وكانت السماء قد رشت برذاذ فالتقيا فتجاولا ساعة وكلاهما جسيم شجاع فقضى ان البربري زلقت رجلاه فسقط وتحامل عليهِ ابو البصري فقطع رجليه بالسيف ثم كبر القوم وحملوا حملة رجل واحد فانهزم يوسف من ساعته وتفرق من معه وكان اصحاب المرواني أقل عدداً من ان يتبعوا المنهزمين فكان حمادهم ان انتهبوا عسكر يوسف وقتلوا من ادركوا، وبلغت اخبار الانتصار عبد الرحمن وهو نازل بحصن المدور ، ومضى يوسف الى قريش ثم الى فحص البلوط ثم واقع محجة طليطلة يريد ابن عذرة ليأمن عنده فمر بعبد الله بن عمر الانصاري وهو بقرية من قرى طليطلة فقيل له هذا يوسف منهزماً فقال لاصحابه « ويحكم اخرجوا بنا نقتله ونريح الدنيا منهُ ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره فقد صار رجلاً ناجشاً للحرب » وخرج حتى لحقهُ وليس بينهُ وبين مدينة طليطلة الاّ اربعة اميال وليس معه الاّ سابق الفارسي احد موالي بني تميم ووصيف واحد وقد انضتهم شدة الركض وليس معهم منعة ولا مدفع فقتل عبدالله يوسف الفهري وقتل سابق

وهرب الغلام حتى دخل طليطلة واقبل عبد الله بن عمر برأس يوسف، فلما بلغ عبدالرحمن اقبال عبدالله برأس يوسف امره ان يتوقف به دون جسر قرطبة وأمر بقتل عبدالرحمن بن يوسف المكني بابي زيد ثم اخرج رأسه الى رأس ابيه ووضعا على قناتين مشهرين الى باب القصر واستصغر ابا الاسود فحبسهُ ، وأدخل على الصميل في الحبس بعد قتل عبد الرحمن بن يوسف من خنقهُ فأصبح ميتاً فدخل عليه مشيخة المضرية في السجن فوجدوه ميتاً وبين يديه كأس ونقل كأنهُ بغت على شرابه فقالوا « والله انا لنعلم يا ابا جوشن انك ما شربتها ولكن سقيتها » وأخرج الى داره ودفنه اهله وانقضى امره وطويت اخباره

وقدر عبد الرحمن ما كان من عبد الملك بن عمر المرواني وحسن بلائه في الذود عنهُ فأعلى مكانته وأغدق عليه العطايا وزوج ابنته من ابنه هشام ولي عهده ونظم عبد الملك في ذلك قصيدة طويلة في مدح عبد الرحمن منها : —

فيا زمناً أودى بأهلي ومعشري	لقد صرت في احشائنا لاذعاً جمرا
ويزداد دهر السوء غشًا وظلمةً	كأن على شمس الضحى دوننا سترا
الى ان بدا من آل مروان مقمرٌ	اضاء لنا من بعد ظلمته الدهرا
هجان أصيل الرأي ندب مهذبٌ	أقام لنا ملكاً وشدَّ لنا ازرا
وأنبت آمالاً وأنبت نعمةً	وجئنا فألفينا الكرامة والبرا
أنال وأغنى منعماً متفضلاً	وأصفى لنا مأمول ابنائه صهرا
فنحن حواليه النجوم تجمعت	الى البدر حتى صرنَ من حوله حجرا

إضطرابٌ وَاستِقرار

ثورة هشام بن عذرة الفهري — ثورة العلاء بن مغيث — ثورة سعيد اليحصبي — مقتل أبي الصباح — ثورة البربر

أصبح عبد الرحمن بعد تخضيد شوكة يوسف وهزيمته وقتله وبعد فتكه بالصميل أمير الاندلس غير منازع ، ولكنهُ لم يستمتع طويلاً بثمرة النصر ولذة الغلبة لان تلك المكانة الشماء التي خاض اليها الدماء واعتلى الرقاب واصطنع الغدر وارتكب في سبيلها ضروب القسوة لم تكن ثابتة الدعائم راسخة البنيان ، وذلك لان اليمنية كانوا هم القوة التي يستمد منها ويركن اليها ، ولكن عبد الرحمن كان يعلم علماً ليس بالظن ان ولاءهم لهُ متهم وان مؤآزرتهم غير طويلة العمر ولا مرجوة البقاء ، وقد حرضهم على نصرته حرصهم على الانتقام من المضرية ورغبتهم في الثأر لانفسهم مما أصابهم في موقعة شقندة وتطلعهم الى استرداد نفوذهم واستعادة مكانتهم ، ولولا ما كان بين زعمائهم من تنافس وتحاسد لارتضوا رئيساً منهم يفيئون اليهِ ويستظلون بزعامتهِ ، وكان المنظور وقد ظفروا ببغيتهم وأدركوا ثأرهم ان يقل اقبالهم على الامير وتبرد حماستهم في تأييده وتقوية سلطانهِ ، ولم تكن سلطة عبد الرحمن قد استتبت ولم تكن مهابته قد استحكمت في النفوس ووقرت في الصدور ، وكانت الفوضى لا تزال غامرة ولم يكن من السهل القضاء على بواعثها واجتثاث أصولها ولم تفل الهزيمة من عزيمة الفهريين ولم يستكينوا

للغلبة ، فبعد سنتين من مصرع يوسف وثب هشام بن عذرة الفهري على طليطلة واستفاد من الفوضى الفاشية والتذمر السائد ونظم ثورة وناصره فريق من البربر لان الثورة كانت ديدنهم حيث تجد غريزة النضال القوية في نفوسهم مجالاً للظهور وخرج اليهِ عبد الرحمن وحاصره ، فلما عضتهُ الحرب ونال منهُ الحصار دعا الى الصلح وأعطى ولده رهينة ورجع عنهُ الامير ، فلما انصرف بجموعهِ عاد هشام الى اشعال الثورة وخلع الطاعة وأعاد عبد الرحمن عليهِ الكرة في السنة التالية وحاربهُ ودعاه الى الرجوع فصبر وثبت للحصار. ولما يئس منهُ عبد الرحمن أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه ثم جعل الرأس في المنجنيق ورمى بهِ اليهِ فسقط في المدينة ورجع عنهُ ذلك العام ، ولما حال الحول أرسل جيشاً لحصاره واتفق بعد ذلك ان ترامت الاخبار الى بلاط قرطبة مهددة منذرة بظهور ثورة خطيرة تهدد قواعد الملك وتكاد تميل برواسيهِ وذلك ان بني العباس بعد ان قوَّضوا ملك الامويين في المشرق واستأصلوا شأفتهم نظروا بعين الكراهة والبغض والحسد الى قوة عبد الرحمن النامية ودولته الناشئة وأخافهم ذلك على بعد المسافة وتنائي الاقطار ، ولم يكن المنصور خليفة العباسيين في ذلك الوقت الرجل الذي يغفل عن مثل هذا المناظر القوي والعدو اللدود ليتركه في هدوء ليؤسس دولة قوية ويجدد ما درس من آثار الامويين في المشرق ، لذلك حرَّض المنصور العلاء بن مغيث حاكم القيروان على محاولة الاستيلاء على الاندلس وابادة دولة عبد الرحمن ، وكان هناك مراسلات وتحالف بين العلاء والثائرين في طليطلة ، ولما جاء العلاء الى الاندلس ونزل بباجة سنة ١٤٦ هـ. ونشر الراية السوداء هرعت اليهِ الجموع، وتطلع أكثر أهل الاندلس الى خلع عبد الرحمن فانضووا تحت لوائهِ، ولم يكن هناك أدعى الى ائتلاف الاحزاب المتدابرة واجتماع الشمل المبدد

وتوحيد الكلمة من رفع هذا العلم لانهُ كان شارة الاسلام ورمز الخلافة ولم يكن مقصوراً على حزب خاص او قبيلة معينة ، واستفلظ أمر العلاء وتحرَّج موقف عبد الرحمن واضطرَّ الى الاستنجاد بالجيش الذي يحاصر طليطلة ، وأذاع العلاء في أطراف البلاد ان عبد الرحمن ثائر على الخلافة .متصب للولاية وحاول هو وانصاره تشويه سمعته ورميه بالمروق والكفر ليثير حماسة محاربيه ، واتصل ثوار طليطلة بحاكم القيروان واحتلوا مدناً كثيرة وحاصروا عبد الرحمن في قرمونة قريباً من شهرين ، وساءت حالة رجاله لقلة المؤونة واعتراهم الضعف وتقاصرت آمالهم ولما رأى ذلك عبد الرحمن صمم على ان يخاطر بكل شيء ، وكانت حماسة عبد الرحمن مقترنة على الدوام بالروية الموفقة والتفكير السديد والملاحظة الدقيقة ، فلما وافتهُ الاخبار بأن جيش العلاء قد ملَّ الحصار وتمشى السأم في نفوس رجاله فأخذوا يتمحلون الاعذار للانصراف الى منازلهم اختار سبعمائة رجل من صفوة حرسه ومغاوير ابطاله وأمر بنار فأوقدت عند باب قرمونة المعروف بباب اشبيلية ثم امر بأجفان سيوفهم فطرحت في النار واخذ كل واحد منهم نصل سيفهِ بيده وقال لهم عبد الرحمن « اخرجوا معي الى هذه الجموع خروج من لا يحدّث نفسه بالنكوص على الاعقاب فاما الموت او الانتصار » وكان هجومهم من الاندفاع والقوة والمضاء بحيث زلزل جيش العلاء وحطم قواعده فولى رجاله منهزمين وقد اختل نظامهم واختلطت صفوفهم وفقدوا قادتهم وما يقرب من سبعة آلاف رجل، وجيء بالعلاء واعلام رجاله فأمر عبد الرحمن بقطع يديه ورجليه ثم ضرب عنقه وأعناقهم وأمر فقرطت الصكاك في آذانهم بأسمائهم وأودعت جوالقاً محصناً ومعها اللواء الاسود وانفذ عبد الرحمن بالجوالق تاجراً من ثقاته وأجزل له العطية وأمره ان يضعهُ بالليل في اسواق القيروان ، وقام التاجر بتلك المهمة ويروى أن المنصور لما بلغهُ خبر

ذلك قال « لقد عرضنا هذا البائس — يعني العلاء — للحتف ما في هذا الشيطان مطمع فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيننا وبينه » ووعى المنصور هذا الدرس القاسي فلم يعد بعد ذلك الى تحدي سلطة عبد الرحمن

وبعد ان أحبط عبد الرحمن دسيسة العباسيين ورد كيادهم وانتصر عليهم انتصاراً باهراً أرسل جيشاً يقوده مولاه بدر وتمام بن علقمة لحصار طليطلة وملّ اهل المدينة وتضعضعت قوتهم وكاتبهم مع ذلك تمام وبدر فأسلموا هشاماً وغيره من زعماء الثورة فخرج بهم تمام يريد تبليغهم وأقام بدر في موضعه منتظراً لرأي الامير في المدينة ، فلما صار تمام بأوربط لقي عاصم بن مسلم الثقفي فأمره بالرجوع الى طليطلة والياً عليها وان يقفل بدراً وقبض منهُ القوم ورجع تمام بما أعلمهُ بهِ ابن مسلم من رأي الامير وأقبل الثقفي بالقوم حتى حل بقرية حلوة فأمر الامير العبدي وكان صاحب الشرطة فأخذ معهُ حجاماً وجباب صوف وسلالاً وحلقت رؤوسهم ولحاهم وألبسهم جباب الصوف وأدخلهم في السلال ثم حملهم على الحمير وأدخلهم قرطبة على هذه الصورة المضحكة المزرية وتجمع اهالي المدينة للتلهي بهذا المنظر والاستهزاء بهم ثم أمر بهم فقتلوا وصلبوا

على ان هذا الافتنان في الانتقام وتلك الضربات الصاعقة والقسوة البالغة لم تشذب أهواء القوم ولم تكبح جماحهم وتحن صعدتهم فقد حدث بعد ذلك بسنتين ان سكر احد زعماء اليمنية وهو سعيد اليحصبي المعروف بالمطاري فذكر عنده قتل اليمنية مع العلاء فاعتقد في رمحه لواء فلما أفاق من سكره ونظر الى العقدة قال ما هذا ؟ فقيل له اعتقدت البارحة هذا اللواء غضباً لقتل قومك فقال حلوا العقدة قبل ان يرفع خبرها ، ثم كبر عليه ذلك فقال ما كنت لأرجع عن رأي وكان شجاعاً نجداً فأرسل الى قومه فاجتمعوا اليه وأقبل حتى دخل قلعة رعواق وأقبل الامير عبد الرحمن حتى

اذا انتهى اليه خبره نزل به فخرج المطري يقاتل حتى قتل وحارب اخوانه حرباً عنيفة عنيدة حتى اضطر عبد الرحمن الى ان يمنحهم الامان

بعد ذلك جاء دور ابي الصباح وكان عبد الرحمن حاقداً عليهِ لانهُ في موقعة صحراء الصارة حرّض اليمنية على قتله ، ولكن عبد الرحمن برغم عدم اطمئنانه اليه وارتيابه في ولائه تحاشى الخلاف معهُ والايقاع به واختاره حاكماً لاشبيلية مداراةً له وتحيناً لاغتنام الفرصة فيهِ ، فلما هدأت الثورات بعض الشيء حاول عبد الرحمن ان يتناول مشكلة ابي الصباح ليفرغ منها فبدأ بتحداه وعزله عن اشبيلية فاستوقد ذلك غيظ ابي الصباح وأثار كمين ضغنه فأهاب برجال قبيلته وألبهم على عبد الرحمن ، وأدرك عبد الرحمن سعة نفوذ هذا الزعيم وسمو مكانتهِ عند قومه فعمد الى الخديعة وأعمل الحيلة في استقدامهِ وأرسل اليهِ عبد الله بن خالد بالامان فقدم بهِ وكان معهُ اربعمائة فارس من جنده فعاتبهُ فأغلظ للامير وتهدده فعاقله الامير ودعا جارية سوداء كانت قيّمتهُ وكانت تصلح له من حال الجواري وتتولى حملهنّ على ادبهِ واستحسانهِ فأتتهُ بخنجر وقد همَّ ابو الصباح بأن يبسط يده ويعتدي على عبد الرحمن فأمر الفتيان بهِ ثم طعنهُ في اوداجهِ بالخنجر حتى أوهنهُ ثم قتله الفتيان وأمر الامير بلفهِ في مسح شعر وتنحيتهِ وتغيير اثر دمهِ ثم ادخل وزراءه فاستشارهم في قتله ولم يعلمهم الاّ انهُ محبوس فلم يشر عليهِ منهم احد بقتله وقالوا له «على الباب اربعمائة فارس وجند الامير غائب ولا نأمن ان يحدث من ذلك بلاء» الاّ ان المرواني خالفهم فيما ذهبوا اليه وأشار عليهِ بقتله وقال في ذلك ابياتاً من الشعر منها:

يا ابن الخلائف اني ناصح لكمو	في قتل ذي إحن يرتاد للنقم
لا يفلتنك فيأتينا ببائقة	واشدد يديك بهِ تبرأ من السقم
جلله عضباً من الهندي ذا شطب	ان الصرامة فيهِ فعلة الكرم

فقال لهم قد قتلته ، ثم أمر برأسه فأخرج وصاح صائح على اصحابه ان ابا الصباح قد قتل فمن اراد ان يلحق بلده فليلحق آمناً فافترقوا ولم يكن حدث ، وساءت هذه الفعلة ابا خالد فاعتزل خدمة عبد الرحمن ولزم منزله حتى مات

وبعد مقتل ابي الصباح بمدة يسيرة قامت ثورة البربر ، وكانوا قد التزموا الهدوء وأمسكوا عن الثورات حتى نبغ بينهم معلم صبيان اسمه شاقية — وفي بعض المراجع اسمهُ سفين بن عبد الواحد — وهو من قبيلة مكناسة وكان مقيماً في شرق الاندلس وكان هذا الرجل مزيجاً من التعصب والدجل فقد كان عاكفاً على قراءة القرآن متبحراً في دراسة الاحاديث واستظهارها منهمكاً في الاطلاع على الشريعة الاسلامية وتاريخ الاسلام واجتمع له الى ذلك طموح ورغبة في ان يلعب دوراً فادعى انهُ من ولد علي وفاطمة ومهد له هذا الدعاء ان أمه كانت تسمى فاطمة وقد اسبغ عليه ذلك مظهر العلماء العارفين ، وكان البربر ينقادون لاي انسان يظن ان له مواهب خارقة وقدرة فوق المألوف واتصالاً بما وراء الطبيعة ، وكان يزيدهم اقبالاً عليه رغبتهم في السلب وميلهم الى الفوضى والحرب ، فلما اعلن دعوته تكاثرت جموعه وعظمت شوكته وسار الى الاقليم الواقع بين نهري التاج ووادي انة واستطاع ان يستولي على مدينة شنتبرية وماردة وقورية وافسد يمناً وشمالاً وهزم الجيش الذي جاء لمحاربته من طليطلة ، ولما ارسل اليه عبد الرحمن قوة يقودها عبيد الله استمال البربر من رجالها وهزم سائر الجيش واستولى على المعسكر وانسحب الى المفاوز ليتحاشى الاشتباك في معركة مع جيوش عبد الرحمن ، وبعد انقضاء ست سنوات في حروب منقطعة وحملات فاشلة استطاع عبد الرحمن ان يوقع الشقاق في صفوف البربر وان يستميل الى جانبه احد زعماء البربر الاقوياء المنافسين لشاقية ، واضطر ذلك شاقية الى ان يترك شنتبرية

وينسحب الى الشمال ، وبينما كان عبد الرحمن يسير اليه وقد دوّخ البلاد الموالية له وأنزل بكل من شايعهُ او دخل في شيء من امره النكال فهو يخرب ويحرق وينسف في قرى البربر التي في طريقه قدم عليه كتاب من قرطبة من عند مولاه بدر يذكر ان حيوة بن ملامس ثار في اشبيلية ونهض معهُ اليمنية طلباً لثأر ابي الصباح وقد اتاح لهم هذه الفرصة التي كانوا ينتظرونها غيبة عبد الرحمن في الشمال وهو يطارد الدعي البربري ، وحاول اليمنيون الاستيلاء على قرطبة وانضم اليهم برابر الغرب ، فقفل عبد الرحمن من فوره الى قرطبة وابى ان يستريح في قصره وبادر اليهم وكان القوم قد اقبلوا حتى نزلوا بنبسر وخندقوا على انفسهم تحاربهم اياماً وبعد مناوشات غير مجدية دعا جماعة من البربر الموالين له وقال لهم « خاطبوا بني عمكم وعظوهم واعلموهم انهُ ان تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم » فلما اظلم الليل دنوا من العسكر وخاطبوهم فأجابوهم الى ما احبوه ووعدوهم بالانحراف عنهم عند ابتداء المعركة ، وقالوا لهم « انا سننهزم فليبق الامير علينا » فلما كان من الغد استحرت الحرب وقالوا للعرب « انا لا نحسن الحرب الاّ فرساناً فأحملوا من بقي منا على الخيل » فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم ودخلوا رجالة وفر البربر على خيلهم الى صفوف عبد الرحمن وانهزمت رجالتهم فجروا الهزيمة على سائر الجيش واعمل رجال عبد الرحمن سيوفهم في المنهزمين وقتلوهم قتلاً ذريعاً ولم يبقوا على احد لا بربري ولا عربي رغم الامر الذي اصدره عبد الرحمن بترك الفارين من البربر وقتل في هذه المعركة حيوة بن ملامس زعيم هذه الثورة وكان قبل ذلك من اصدقاء عبد الرحمن المقربين

قام بعد ذلك عبد الرحمن على رأس حملة في اثر الدعي الفاطمي فهرب الفاطمي حتى أمن في المفاوز ولم تخمد ثورته إلاّ بعد سنوات حيث قتله اثنان من انصاره (وقبل خمودها ظهر في الميدان عدو جديد شديد الخطر مرهوب الصولة وهو شارلمان العظيم

شارلمان في الميدان

خصوم عبد الرحمن يأتمرون به — تحريض شارلمان على غزو الأندلس — قدوم شارلمان — اضطراره الى العودة — اخماد ثورة سرقسطة

كان عبد الرحمن صادق النهوض بأعباء الامارة حسن القيام بشؤونها لا ينفك يعمل خاطره ويتعب رويته في نشر الامن وتثبيت النظام ، وأرصد لاعدائه والمارقين من طاعته شدة بالغة وقسوة منكرة ، ولكن رؤساء قبائل الاندلس من عربها وبربرها كانوا قوماً لا يسيغون الخضوع ولا يطيقون النظام ولا يصبرون للسلطان القاهر والملك العتيد وكانوا يؤثرون تقسيم الجزيرة الى أمارات صغيرة تكون حرة في محاربة بعضها بعضاً ليظل كل منهم محتفظاً باستقلاله معتزًّا بقبيلته ، ورغم ما بذلهُ عبد الرحمن من جهد وما أظهره من ضراوة كانت تتوالى الاحداث وتتصدع الفتوق وتقوم الثورات وتدبر الدسائس لتوهين ملكه وخلع طاعته واقامة العقبات في طريقه

ومن المؤامرات الخطرة التي دبرت ضده المؤامرة التي اشترك فيها ثلاثة من اعدائه وهم عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقالبي وكان متزوجاً من احدى بنات يوسف وكان يقال لهُ الصقالبي لطول قامته وزرقة عينيه وشعره الاصهب ، وسليمان ابن يقظان الاعرابي الكلبي حاكم برشلونة وابو الاسود بن يوسف ، وكان في حبس عبد الرحمن ولكنه ادعى العمى وأجاد تمثيل دوره واحتمل شدة الاختبار حتى نجح

في حمل الجميع على الاعتقاد بماه واستطاع بذلك ان يضلل حراسه ويغريهم بالتراخي في مراقبته ودبّر بعد ذلك وسيلة للهرب مع مولى من مواليه كان يتردد عليه من حين الى حين ، ففي ذات صباح وقد سيق المسجونون من ممر تحت الارض لـكي يغتسلوا في النهر ، انتظر مولاه مع بعض اصحابه في الضفة اليسرى وغافل هو الحراس وغاص في النهر وعبره سابحاً وامتطى صهوة جواد اعدّ له وفرّ الى طليطلة آمناً

وكانت عداوة هؤلاء الثلاثة لعبد الرحمن من القوة والتأصل بحيث أنستهم جميع الاعتبارات وأذهلتهم عن كل الفروض والواجبات وأوحت اليهم الالتجاء الى شارلمان وكان يعد في عصره حامي حمى النصرانية وأقوى خصوم الاسلام فقصدوا الى بلاطه في بادربورن سنة ٧٧٧ ميلادية وعقدوا معه محالفة ضد عبدالرحمن ، وكان شارلمان في ذلك يجري على سنن السياسة التقليدية التي اتبعها أمراء الفرنجة وكانت تشجيع كل عصيان يرمي الى الاستقلال عن حكومة قرطبة واضعاف شوكتها ، وكان شارلمان في ذلك الوقت يظن انه قد فرغ من أمر السكسون وأخضعهم وحملهم على الدخول في المسيحية ، وكان قد أبعد زعيمهم ويتكند وتقرر ان يعبر شارلمان جبال البرانس ومعه جيش ضخم وان يوافيه الاعرابي وحلفاؤه في شمال نهر ابرة حيث يعترفون بسلطانه ويشدون إزره ، وان يجمع الصقالبي جيشاً من البربر الافريقيين ويقودهم الى ولاية تدمير ويتعاون مع الغزاة في الشمال بأن يرفع علم الخليفة العباسي حليف شارلمان ، وكانت هذه الخطة المحكمة التدبير تنذر بأنها ستكون أشد ضربة وجهت لعبد الرحمن .

ولـكن لحسن حظه لم تنفذ الخطة بالاحكام الذي دبرت به ، ففي سنة ١٦١هـ . عبر عبد الرحمن الصقالبي من افريقية الى الاندلس مظهراً الدعوة للعباسيين ونزل بتدمير واجتمع اليه البربر ولـكنهُ وصل مبكراً اذ لم يكن شارلمان قد عبر البرانس وكتب

الصقالبي الى سليمان بن يقظان يدعوه الى أمره ويطلب اليه مناصرته فأجابه ابن الاعرابي بأن الخطة المتفق عليها تقضي ببقائه في الشمال حتى مجيء جيش شارلمان وكانت العداوة الاصيلة بين الفهريين واليمنيين من القوة بحيث تسمح بتكاثر الظنون وتراكب الشبهات واعتقد ابن حبيب ان الاعرابي قد ختر عهده فغزاه بجموعه فهزمه الاعرابي فكرّ الفهري الى تدمير فنزع اليه رجل من اهل أوربط وصار من اصحابه وظهرت لهُ منه نصيحة حتى صار من ثقاته واطمأن اليه فاغتاله وأخذ خيله ونزع الى الامير عبد الرحمن وكان هذا الرجل من صنائعه

وفي بواكير الربيع سنة ٧٧٧م. تقدم شارلمان في جيوشه الجرارة وجموعه الزاخرة الى جبال البرانس واضطر بسبب ضخامتها ان يشطرها شطرين لعبور ممرات البرانس على ان يلتئم الشطران عند ابواب سرقسطة . ولما هبط أسبانيا كان أحد زعماء العرب الثلاثة قد فارق الحياة ، ولم يستطع ابو الاسود ان يقوم بعمل ذي بال لان طول اقامته في السجن أخلت بنشاطه وقصرت سعيه وجعلته غير صالح لمواجهة هذا الموقف الخطير ، ولم يبق لشارلمان سند سوى ابن الاعرابي وحلفائه في الاقاليم الشمالية مثل ابي ثور حاكم وشقة ومثل الكونت جالندو المسيحي حاكم شرطانيس

ولم يكن ابن الاعرابي ساكن الحركة في تلك الفترة فقد ثار معهُ الحسين بن يحي الانصاري وهو من ولد سعد بن عبادة الزعيم الانصاري المشهور واستولى على سرقسطة ، ولكن لما زحف شارلمان الى أسوار المدينة لم يستطع الزعيمان ان يتغلبا على كراهة المسلمين لدخول ملك الفرانك الى مدينتهم واشمئزازهم من تلك الخيانة المنافية لمبادىء الاسلام وقواعد الشرف ،وكان من الصعب ان يسيغ ذلك الحسين الانصاري في يسر وسهولة لان فيه نبذاً لذكريات أسرته المجيدة وماضيها الحافل في



نصرة الاسلام وكان الحسين كسائر ابناء ذوي السابقة والبلاء في تدعيم الاسلام يعتز بتلك الذكريات الغالية ويزهى بها ويستمدّ منها الثقة بالنفس والحرص على الكرامة والترفع عن الدنايا ، وكان ما بين الزعيمين من تنافس يضعف الثقة بينهما ويجعل تعاونهما قليل الثمرة قصير المدى ، ولما رأى ابن الاعرابي ذلك خشي ان يداخل شارلمان الشك في أمره فاستسلم لشارلمان ووضع نفسه رهن اشارته ، وبينما كان شارلمان يتأهب لمحاصرة سرقسطة وارغامها على الخضوع ترامت اليه الانباء بأن الزعيم السكسوني ويتكند انتهز فرصة غياب جيش الفرانك في اسبانيا وعاد الى سكسونيا وازكى حمية السكسون فعادوا الى الثورة واكتسحوا البلاد ووضعوا السيف والنار وتوغلوا حتى حدود الراين واستولوا على مدينة ديتز المقابلة لمدينة قولون

ولم يجد شارلمان ازاء تلك الاخبار المقلقة بدًّا من ان يقوض خيامه لساعته ويبتدر العودة من شواطىء الابرة الى شواطىء الراين ، ومرّ جيشه من ممرات رونشزفال ، وعلمت بذلك قبائل البشكنس وكانت تكره قبائل الفرانك كراهة شديدة فاختبأوا في الاحراج والمنعطفات المشرفة على آخر الوادي في اقصى نواحيه الشمالية ، واضطر جيش الفرانك بسبب ضيق الوادي ان يمر في صف مستطيل مترامي الامتداد ، فترك البشكنس اكثر الجيش يمر دون ان يتعرضوا له ، ولما جاءت المؤخرة الى الوادي ومعها الاحمال انقضوا عليها وأفنوها بأسرها وحملوا الغنائم والاسلاب واغتنموا فرصة اقبال المساء وتفرقوا تحت ستار الظلام في كل ناحية من نواحي الوادي الجبلية وكان فيمن قتل رولاند البطل المعروف والشاعر الذائع الصيت وصديق شارلمان الحميم فرثاه شارلمان أحر رثاء وبكاه امر بكاء

وهكذا انتهت هذه الحملة التي بدأت قوية محكمة حافلة بالاخطار التي كانت كافية

لهدم بناء عبد الرحمن ومحو سلطانه ، وقد ظلّ عبد الرحمن خلال ذلك ملتزماً الهدوء يشاهد من بعيد تمثيل هذه المأساة ، فلما تمت فصولها وانفض لاعبها اوفض عبد الرحمن ليجني ثمرها وحاصر سرقسطة ، وقبل ان يبلغها كان الاعرابي الذي صحب شارلمان اثناء عودته وعاد بعدها الى سرقسطة قد مات ، وذلك لان الحسين بن يحي اتهمهُ بالخيانة وعدا عليه في المسجد يوم جمعة وقتله وصار الامر للحسين وحده ، فلما حاصر عبد الرحمن المدينة سلم له ، ولكنه عاد الى الثورة بعد قليل فلما حاصر عبد الرحمن المدينة ونصب عليها المنجنيق من كل جانب وضيق على اهلها اشد الضيق ترامى اليه القوم واسلموا اليه الحسين الانصاري وزعماء الثورة فشدخ رؤوسهم بالعمد وأقبل خواصه يهنئونهُ فجرى بينهم احد من لا يؤبهُ به من الجند فهنأه بصوت عال فغضب عبد الرحمن وقال له في حدة « والله لولا ان هذا اليوم يوم اسبغ عليّ فيه النعمة من هو فوقي فأوجب عليّ ذلك ان انعم فيه على من هو دوني لاصليتك ما تعرضت له من سوء النكال ، من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الامارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب اباك او اخاك ، وان جهلك ليحملك على العود لمثلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة » فأجابهُ الرجل « لعلّ فتوحات الامير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة لا أعدمنيه الله تعالى » فتهلل وجه عبد الرحمن وقال « ليس هذا باعتذار جاهل » واسترسل يقول « نبهونا على أنفسكم اذا لم تجدوا من ينبهنا عليها » ورفع مرتبته وزاد في عطائه . وبعد خضوع مدينة سرقسطة هاجم عبد الرحمن قبائل البشكنس وأخضع أمير شرطانيس ، وكان آخر من قام بثورة هو ابو الأسود ولكن عبد الرحمن انتصر عليه في معركة حامية حيث خانهُ قائد ميمنته

وهكذا عاد عبد الرحمن منصور اللواء من كل حروبه وقمع الثورات وأطفأ جمرة العصاة وأرغمهم على الاذعان لطاعته وخلق من الفوضى نظاماً ودولة محبوكة الاطراف متماسكة البنيان كما ينفث الشاعر الكبير روحه في طائفة مبعثرة من القصص والاساطير فيخرج منها آية من آيات الفن الرفيع.

الأيامُ الأخيرة

سياسة عبد الرحمن — الخلاف بينه وبين بدر — مقتل المغيرة ابن أخيه — وفاة عبد الرحمن

نجح عبد الرحمن في سياسته وصحبهُ التوفيق في عمله ولكنهُ دفع ثمناً غالياً لنجاحه فقد اقتضاه الحرص على النجاح وقهر الخصوم والاعداء ان لا يتعفف عن الغدر والخيانة ولا يتورّع عن الدسيسة ولا يحجم عن الشدة المتناهية ، وقد جاء الى الاندلس طريداً قد شرّده الخوف وأتعبتهُ المطاردة فلم يجد أمة موحدة القصد متحدة التقاليد متقاربة الاخلاق بل وجد على نقيض ذلك اخلاطاً من الامم واغاطاً متباينة من الناس فقد كانت أسبانيا عند دخولهِ خليطاً غريباً من بقايا الرومان والاسبانيين القدماء والقوط والنورمنديين والعرب والبربر لا جامعة قومية تربطهم ولا مصلحة مشتركة تعين على ادماجهم ولا عقلية متشابهة تسيطر عليهم وتسيرهم ، فكان جل ما يرمي اليهِ ويعمل على تحقيقه هو ان يخلق منهم أمة واحدة ، وقد أفنى زهرة شبابه وأنضر أيامه في هذه المحاولة الصعبة وكلفهُ ذلك مجهوداً جباراً ودماء غزيرة واسرافاً في الشدة فشوّه ذلك من سمعتهِ وألقى حول شخصيته ظلاً قاتماً وأظهره في مظهر الطاغية الجبّار الذي لفظ الرحمة ونبذ القانون والعدل، ولما استوحش من العرب واستراب في اخلاصهم لهُ وعلم انهم لهُ على دغل وحقد دفين انحرف عنهم الى اتخاذ

المماليك وأكثر من ابتياع الموالي واعتضد ايضاً بالبربر ووجه عنهم الى بر العدوة وأحسن لمن وفد عليهِ منهم احساناً رغبهم في المتابعة واستكثر منهم ومن العبيد واتخذ أربعين الف رجل صار بهم غالباً على الاندلس مطاع الكلمة قوي النفوذ وعجز بذلك عبد الرحمن عن الظفر بحب شعبهِ واستخلاص مودتهِ وكرههُ القوم من أعماق نفوسهم وتمنوا زوال ملكه وأمسك أهل الشرف والصدق عن الاشتراك في العمل معهُ فلما مات القاضي يحيي بن يزيد بقرطبة شاور عبد الرحمن اصحابه في من يوليه القضاء مكانه، وحضر شوراه ابناه سليمان وهشام، وقال لهُ هشام وسليمان «عرفنا بجانب المدور الادنى الى قرطبة شيخاً من العرب الشاميين له فضل وصلاح وخير كثير يسمى مصعب بن عمران الصمداني» فصدقهما الوزراء، فبعث عبد الرحمن في الشيخ فلما اوصله عبد الرحمن الى نفسه أعلمهُ بما بعث فيهِ فرفض الرجل ان يلي القضاء في عهد أمير يضع سلطته فوق القانون ولما ألحَّ عليهِ عبد الرحمن ظل مستمسكاً برأيه، وكان عبد الرحمن لا يحتمل ان يخالف فغضب غضباً شديداً حتى جعل يفتل ما أسبل من شاربه وكانت امارة غضبه وسطوته وغالب غضبه في صعوبة والتفت الى مصعب وقال لهُ «قم فعلى المشيرين بك لعنة الله وغضبه»

وتغيرت عليهِ قلوب انصاره والقائمين بدعوتهِ الذين استعان بهم في الشدائد فهجروه وانقطعت بينهُ وبينهم الاسباب، فابن خالد نقيبه القديم ابى ان يسير معه في مسالك الخيانة وطرائق الغدر فهجر خدمته بعد فتكه بأبي الصباح، ولما رأى ابو عثمان استغناء عبد الرحمن عنهُ وعن امثاله بعد استقرار دولته أراد ان يشغل خاطره ويظهر له حاجته اليهِ فأغرى وجيهاً ابن اخته بنبذ طاعة عبد الرحمن والانضمام الى الدعي البربري ولما قتل الدعي البربري غيلة ووقع وجيه في قبضة يده ضرب عنقه ولم يعبأ بشفاعة

عبيد الله ، واتهم بعد ذلك عبيد الله في مؤامرة مع ابن أخي عبد الرحمن وقيل لهُ ان أبا عثمان هو الذي ضمن له تمام الامر ونجاح المؤامرة ولكن عبد الرحمن رغم طغيانه لم يجد الادلة كافية للحكم عليهِ بالقتل فقال للذين اتهموه « هو ابو سلمة هذه الدولة فلا يتحدث الناس عنهُ بما تحدثوا عن بني العباس في شأن أبي سلمة ولكن سأعتبهُ عتباً أشد من القتل » وجمل بوعده ورجع لهُ الى ما كان عليهِ في الظاهر

وبدر خادمه الامين لم ينج من غضبه ولم يسلم من شدته وانتقامه، ويرجع الجفاء الذي نشأ بينهما الى اختلاف في طبيعة الرجلين ، فقد كان عبد الرحمن رجلاً مطبوعاً على الكفاح لا يقر لهُ قرار ولا تهمد لهُ حركة وكان في دمه لهب لا تخبو ناره وفي روحه عاصفة لا يهدأ هبوبها فلم يستطع بدر المسكين ان يظل متابعاً خطواته الحثيثة متوقلاً معه في معارجهِ البعيدة المطالع وكان خليقاً بعبد الرحمن ان يرحم مولاه الامين الذي كان يحلم بالراحة بعد العناء الطويل والجهاد الشاق ، ولكن الرجل الذي أنفق حياته في القضاء على الفوضى وحسم عللها لا يستطيع في اواخر أيامه ان يغضي عن أقرب الناس اليهِ واحظاهم عنده اذا قاوم إرادته واعترض سعيه ، وأول ما بدأ بهِ بدر تذمره قوله « لقد بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليهِ لما بلغ أقصى أمله » وأمره مرة بالخروج الى غزاة فقال « انما تعبنا أولاً لنستريح آخراً وما أرانا الاَّ في أشد مما كنا » وأطال من امثال هذه الاقوال التي كانت تبلغ عبد الرحمن وتغضبه فهجره وأعرض عنهُ فزاد كلامه وكثرت شكواه وكتب اليهِ رقعة يقول فيها « أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر والاقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر الذي أهانني في عيون اكفائي وأشمت بي اعدائي وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذ بي وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء

وأظن اعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي اكثر من هذا فإنا لله وانا اليه راجعون » فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه فوقع عليها « وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة ادبك ولئيم معتقدك والعجب انك متى ما اردت ان تبني لنفسك عندنا مناتاً اتيت بما يهدم كل منات مشيد مما تمن به وما أضجر الاسماع تكراره وقدحت في النفوس اعادته وقد استخرنا الله تعالى من أجله على امرنا باستئصال مالك وزدنا في هجرك وابعادك وهضنا جناح ادلالك فلعل ذلك يقع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد ان شاء الله تعالى فنحن اولى بتأديبك من كل احد اذ شرك مكتوب في مثالبنا وخيرك معدود في مناقبنا » فلما ورد هذا الجواب على بدر استسلم للقضاء وعلم أن لا مردَّ لامر عبد الرحمن ولا معقب لحكمه ، ووجه عبد الرحمن من استأصل ماله والزمه داره وهتك حرمته ، ومع هذا لم ينته بدر عن الاكثار من مخاطبته ليستلينهُ ويستجلب عفوه الى ان كتب اليه « قد طال هجري وتضاعف همي وفكري واشد ما عليَّ كوني سليباً من مالي فعسى ان تأمر لي باطلاق مالي واتحد به في معزل لا اشتغل بسلطان ولا ادخل في شيء من اموره ما عشت » فوقع له عبد الرحمن « ان لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبتهُ ولا سبيل الى رد مالك فان تركك بمعزل في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلي من شغل السلطان اشبه بالنعمة منهُ بالنقمة فايأس من ذلك فان اليأس مريح » فسكت بدر لما وقف على هذه الاجابة مدة الى ان اتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس فكتب اليه في ذلك رقعة منها « وقد اتى هذا العيد الذي حالفت فيه اكثر من اساء اليك وسعى في خراب دولتك ممن عفوت عنهُ فتبنّك النعمة في ذراك واقعد ذروة العز وانا على ضد من هذا سليباً من النعمة

مطرحاً في حضيض الهوان أيأس مما يكون وأقرع السن على ما كان » فلما وقف عبد الرحمن على هذه الرقعة امر بنفيه عن قرطبة الى اقصى الثغر وكتب له على ظهر رقعته « لتعلم انك لم تزل بمقتك حتى ثقلت على العين طلعتك ثم زدت الى ان ثقل على السمع كلامك ثم زدت الى ان ثقل على النفس جوارك وقد امرنا باقصائك الى اقصى الثغر فبالله الا ما اقصرت ولا يبلغ بك زائد المقت الى ان تضيق بك معي الدنيا ، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان وما تقوّلوه عليك وما لك عدو اكبر من لسانك فما طاح بك غيره فاقطعهُ قبل ان يقطعك » .

ولم يكف عبد الرحمن هذا الخلاف مع انصاره ودعائم دولته فقد اخذ ابناء أسرته وأقاربه يدبرون له المؤامرات ويحيكون له الدسائس ، وكان عبد الرحمن لما اصبح سيد اسبانيا قد استدعى اقاربه من اكناف آسيا واطراف افريقية وأكرم وفادتهم وأغدق عليهم العطايا وخلع عليهم ابراد المجد وكان يقول « ان أعظم ما أنعم الله تعالى به عليّ بعد تمكني من هذا الامر القدرة على ايواء من يصل اليّ من اقاربي والتوسع في الاحسان اليهم وكبري في أعينهم واسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا منة عليّ فيه لاحد غيره » ولكن هؤلاء الامويين كان يستفزهم الطموح الذي تمتاز به تلك الاسرة وكانوا يشعرون بالغضاضة لاحتمال نير حكم عبد الرحمن المطلق وكان اول من ائتمر به منهم عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدي واشترك معه في المؤامرة عبيد الله بن ابان بن معاوية بن هشام وهو ابن اخي الداخل فوشى بهما مولى لعبيد الله بن ابان وكان قد اتهم بمساعدتهما على ما هما به من الخلاف ابو عثمان كبير الدولة فقتلهما عبد الرحمن ولم ينل ابا عثمان ما نالهما لعدم ثبوت التهمة وذلك سنة ١٦٣هـ . وفي سنة ١٦٧ دبر ابن اخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ثورة وسعى في طلب

الامر لنفسه وساعده هذيل بن الصميل الذي كان يحاول ان يثأر لابيه ولكن خبر تدبيرهما انتهى الى الامير فبعث في طلب المغيرة وهذيل وكل من اراد ذلك الرأي فاستنطقهم فأقروا فأمر بقتلهم ، ودخل بعض مواليه على اثر قتله ابن اخيه المغيرة وهو مطرق شديد الغم ، وأدرك مولاه ما يدور بنفسه من الخواطر وما يتناوح بها من الاشجان فقد جرحت كرامته وأهدرت هيبته المرة الثانية وأصيب في معقل حبه وناحيته العاطفية اللينة فدنا منه في صمت وحذر ، وبعد فترة سكون رفع عبد الرحمن رأسه وقال « ما عجبي الا من هؤلاء القوم سعينا فيما يضجعهم في مهاد الامن والنعمة وخاطرنا فيه بحياتنا حتى اذا بلغنا منه الى مطلوبنا ويسر الله تعالى اسبابه اقبلوا علينا بالسيوف ، ولما أويناهم وشاركناهم فيما افردنا الله تعالى به حتى أمنوا ودرت عليهم أخلاف النعم هزوا اعطافهم وشمخوا بآنافهم وسموا الى العظمى فنازعونا فيما منحنا الله تعالى فخذلهم الله بكفرهم النعم اذ اطلعنا على عوراتهم فعاجلناهم قبل ان يعاجلونا وأدى ذلك الى ان ساء ظننا في البريء منهم وساء ايضاً ظنه فينا وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، وان اشد ما عليَّ في ذلك اخي والد هذا المخذول فكيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه ؟ ام كيف يجتمع بصري مع بصره ؟ اخرج له الساعة فاعتذر اليه وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها اليه واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة الى حيث يشاء من بر العدوة » قال فلما وصلت الى أخيه وجدته أشبه بالاموات منه بالاحياء فآنستهُ وعرَّفتهُ ودفعت له المال وأبلغتهُ الكلام فتأوَّه وقال « ان المشؤوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه وهذا الولد العاق الذي سعى في حتفه قد سرى ما سعى فيه الى رجل طالب العافية وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنهُ معرة الزمان وكله

ولا حول ولا قوة الا بالله لا مرد لما حكم به وقضاه » ثم ذكر انه آخذ في الحركة الى بر العدوة ، قال ورجعت الى الامير فأعلمته بقوله فقال « انه نطق بالحق ولكن لا يخدعني بهذا القول عما في نفسه والله لو قدر ان يشرب من دمي ما عف عنه لحظة فالحمد لله الذي اظهرنا عليهم بما نوبناه فيهم واذلهم بما نووه فينا »

وكان عبد الرحمن في مستهل حكمه يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل اليه من اراده من الناس فيصل الضعيف منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة وكان من عادته ان يأكل معه من اصحابه من ادرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه ، وكان يحضر الجنائز بنفسه ويصلي عليها ويصلي بالناس اذا كان حاضراً ويعود المرضى ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم الى ان حضر يوماً في جنازة فتصدى له في منصرفه رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال له « اصلح الله الامير ان قاضيك ظلمني وانا استجيرك من الظلم » فقال له عبد الرحمن « تنصف ان صدقت » فمد الرجل يده الى عنانه وقال « ايها الامير اسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بانصافي فانه معك » فوجم الامير والتفت الى من حوله من حشمه فرآهم قليلاً ودعا بالقاضي وامر بانصافه، فلما عاد الى قصره كلمه بعض رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى فقال له « ان هذا الخروج الكثير ابقى الله تعالى الامير لا يجمل بالسلطان العزيز وان عيون العامة تخلق مجلته ولا تؤمن بوادرهم عليه فليس الناس كما عهد » فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ووكل بذلك ولده هشاماً ، والواقع ان عبد الرحمن حاول في اول ولايته ان يستصفي ود رعيته ولكنه يئس من ذلك في النهاية وآثر ان يكون مرهوباً على ان يكون محبوباً وهكذا كان عبد الرحمن يشعر بانه انتصر على الاجسام والظواهر ولكنه لم يغز القلوب ولم يأسر

الارواح وكان في ايامه الاخيرة سلبياً من اصدقائه الذين قاسموه عهوده الماضية وذكرياته السالفة، وكان يجد عزاء وسلوى في اقتطاع جزء من وقته اليومي للاشراف على انجاز بناء جامع قرطبة الكبير ثم بدأ يشعر بانحلال قوته وقرب يومه وكان يؤلمهُ ان يمضي به الموت قبل ان يتم انتقامه من بني العباس وقد كان اشاع في سنة ١٦٣هـ . الرحيل الى الشام لانتزاعها من بني العباس وحالت دون ذلك الثورات ولعلّ هذا الرجل الذي تعوّد الكفاح ومقارعة الحوادث كان يحز في نفسه ان يقهره الموت ويسكت نأمته وفي ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ غابت شمس حياته وهدأت حركته الدائبة واستراح جسمه الذي تعب في مراد نفسه الكبيرة . وقد كانت هذه الروح الهائمة القلقة تسكن في مسلاخ انسان اصهب خفيف العارضين بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان اعور اخشم

لكن عور وفى بذمته لا عورٌ شانهُ ولا قصر

عبد الرحمن الفنان

شاعريته — قدرته الخطابية —
جوانب اخرى لحياته الفنية

يحدث من حين الى حين ان احد النوادر الافذاذ الذين أحرزوا السبق وحازوا البطولة في احد ميادين الجهاد الانساني ودوائر النشاط الفكري يحاول ان يجرب قوته في ميدان آخر ، وقد تكون المحاولة خالية من كل اهمية سوى اهمية انها تحمل اسمه وتطبع بطابعه ليكسبها ذلك تأثيراً عجيباً وجاذبية مدهشة ، فاذا بدا لاحد كبار المصورين ان يقرض شعراً او يعالج كتابة قصة او تدبيج بحث تشوقنا الى مطالعة اشعاره والاستمتاع بقصته ومدارسة بحثه ، واذا حاول احد مشاهير الشعراء ان يعتزل القلم ردحاً من الزمن ويحمل ريشة المصور وجلس الى اللوحة تسابقنا الى رؤية الصور التي ترسمها ريشته وتنتجها قريحته ، وتقدمنا اليها النقاد والباحثون ليتأملوا هذه الاعجوبة ويحاولوا حل هذا اللغز ، وتكون الجاذبية أعظم والتلهف أقوى اذا تباعدت الميادين واختلفت السبل ، فعند ما ينظم احد القواد البارزين قصيدة او او عند ما يؤلف ملك من الملوك رواية يتسابق هواة العجائب وغير هواتها لمشاهدة هذه الطرفة

ولقد كان لفردريك الاكبر أشعار لم تكن من جيد الشعر ولم يكن حظه فيها من

التوفيق كبير ولكن وثوبها من مقولة الملاذي وكونها واجهت عينه التي رعت حرب سبع السنوات في اوروبا أكسبها أهمية عالية ، وعرائس الشعر لا تفرهن التيجان ولا يرهبن أبهة الملك وضخامة السلطان فهن يخلن على الملوك بنفحاتهن مما جعل فردريك الاكبر أضحوكة للمتهكم الاكبر فولتير ومما جعل الخليفة المستمين هدفاً لسخرية حاشيته . ومن السهل ان يتصور الانسان شدة حرص الامراء والملوك على ان تروى لهم كلمات ويكون لهم شعر فانهم يعلمون ان بيتاً من الشعر أبقى على الدهر من ملكهم المريض وانه سيروى يوم ينسى أمرهم ويطوى ذكرهم فكم من فاتحين كبار ملأوا جنبات زمانهم جلجلة ودوياً وأفعموا قلوب معاصريهم حزناً وسروراً ثم انطفأت شهرتهم وخفت صوتهم ولم تردعهم عادية الفناء مسالحهم وسراياهم وكراديسهم الحاشدة ، وكم من مسعري ثورات وخالقي دول قد سحب النسيان عليهم أذياله فلا يعرف من أخبارهم شيء ، وانما القوة الباقية في الحياة هي قوة الفكرة ، والمفكرون هم الذين يحكمون الدنيا بلا جيش ولا صولجان ولا تاج مرصع ، فهم الملوك غير المتوجين وهم الغزاة بلا سيف ولا مدفع ، وملوك الدنيا وقياصرة الارض كانوا يعلمون ذلك رغم أنوفهم الشماء ومكانتهم السامقة

ومن أمثلة هؤلاء العظماء الذين جربوا قوتهم في ميدان غير الميدان الذي أكسبهم الذكر الباقي والمجد التالد عبد الرحمن الداخل ، فنحن لا نستطيع الا أن نعجب عند قراءة الاشعار التي جادت بها قريحة هذا الجلاد الرهيب والسفاح المبيح لان أساس الشاعرية هو سهولة استعراض الحالات النفسية المتعددة ومعالجة الاحساسات المتغايرة من طريق التجربة او من طريق التخيل وقل ان يمتاز الشاعر بالتزام خطه او الثبات على شيء وهو على الدوام مستطار الوجدان مستفز العاطفة ،

فالشاعر يجمع المتناقضات وملتقى الغرائب المتباعدات وقد وصف لنا جبتي بشاعريته الناضجة وقدرته الخالقة في رواية تاسو هذين الطرازين من الناس ، طراز رجل العمل وطراز الشاعر، فصوَّر الاول رجلاً مائل الاغراض محدود القصد متزن الملكات ، وصوَّر الثاني رجلاً عاجز الارادة تلعب بهِ أهواؤه وتستعبده عواطفه فهو يسير في الحياة على غير هدىً لا يعرف لهُ غاية ويفر من مواجهة الحياة الى أحلامه المضيئة وآماله المزدهرة. وكلما كان الشاعر أقرب الى الممثل منهُ الى الخطيب ارتفع في ذروة الشاعرية وحلق في سماواتها ، لان الممثل ينطلق في تمثيل دوره بلا مراقبة للحضور وهو في ذلك عكس الخطيب الذي تظهر براعته في استجلاء نفوس الحاضرين والنفاذ الى اعماقهم ومعرفة مواطن التأثير فيهم واستهواء ألبابهم ، والشاعر الكبير يناجي نفسه بشعره كما قال أحدهم

وشأن مثلي ان يرى خاليا بنفسه يبحث عن نفسه

وكلما أخلص في تلك المناجاة صدق شعره وسما وحيه ، وتفكيره في تأثير شعره على الناس يفسد شاعريته وينقص نصيبها من الصدق ، كما ان الممثل اذا أسرف في مراقبة النظارة تمزقت حركاته واضطرب تمثيله وأسف وحيه وبدا عليهِ التكلف الممجوج ، فالشعر إذن سليل الوحدة ومناجاة النفس والتحدث اليها ، وأصدق الامم شاعرية هي الامم التي تغلب عليها النزعة الفردية والاكتفاء بالنفس والاعتداد بها ، أما الامم التي تفشو فيها المجتمعات وينمحي فيها الفرد في غمار الجماعة ويظل دائماً يقرأ من نفوس معاشريه اكثر مما يقرأ من صفحات نفسه وتكون اجتماعاته بالناس اكثر من خلواته بنفسه فهي أمم البلاغة والفصاحة ولكنها ليست أمم الشاعرية العميقة والفلسفات العالية . ومن ثم منشأ شاعرية الانجليز وفلسفة الالمان وبلاغة الفرنسيين

ورجل العمل يجمع شوارد افكاره وعوازب خواطره في ناحية واحدة ويصب كل جهوده في تيار واحد ، وهو يعيش في الحياة العملية الزائلة المتقلبة ويستمسك بها ولا يسكن الى جانب منابع العواطف الابدية ولا يسمو الى الافكار الخالدة، ويسير من الحياة في موكب من انتصاراته وبشائر نجاحه ، ولا يطيل النظر الى الماضي لان الحاسة التاريخية معرقلة لسيره ، وكثرة التلفت الى الماضي تصاحب الفاشلين في الحياة المغلوبين فيها على امرهم لان من عادة المحزون ان يتذكر ، ورجل العمل لا يحفل كثيراً بالمستقبل ولا يطرز حواشيه بأضواء الاحلام وانما شأنه ان يعيش في حاضره ويتعلق به ويحرص عليه ، وهذه هي سمة المقدرة العملية والكفاية الدنيوية فهو لا يعمل على مصارعة مشكلات الفكر وانما يتناول حاضره ويحرص عليه الحرص كله ويحاول ان يترشفهُ ويعتصره ولا يبقي فيه بقية ، وقد كان الامويون رجالاً عمليين دنيويين وكانوا في الجاهلية اصحاب تجارة وفي الاسلام انتزعوا الملك بالحيلة والدهاء والعصبية المتماسكة وعالجوا صناعة الحكم ، ومن كثر نصيبه من الحياة العملية قلّ نصيبه من الحياة الشعرية سليلة الوحدة ، ولكن الروح الشعرية الغنائية التي كانت مستأثرة بالامة العربية واكبار الامراء للشعراء وعقد المجالس لسماعهم واتخاذ الشعر للدعاية وتسجيل المناقب كان يجعل الشعر فرعاً من مشاغلهم السياسية ومادة في برنامجهم العملي ، وكانوا اذا نبغ فيهم شاعر جاء شعره صورة من نفسيتهم الحسية المتهالكة على شهوات الجسم ومناعم اللذات وأطايب العيش فلا نلمح فيه افراح الروح الداخلية او احزانها الخفية ولا نتبين اثر الروح الدينية المتغلغلة وعمق الشعور وتلك النظرات الشاملة الموحية التي تميز كبار الشعراء ، فشعر يزيد بن معاوية او شعر الوليد بن يزيد اكثره من الغزل الطافح بالشهوة والتهالك على المتعة وليس يروي لك عن احساس

عميق شامل وان كان لا يخلو من جمال فن ورقة نظم وبعد عن التكلف

وعبد الرحمن الداخل وليد ايام الثورات العاصفة والذي نشأ مثلما ينشأ ابن الملاح فوق الزاخر المزبد وعاش عمره فوق غوارب الهزاهز والثورات يصارعها وتصارعه لا تشم من شعره عبق الوحي ونفحة القدس ولا تشيم فيه بروق الافكار البعيدة الخاطفة وأضواء النظرات المترامية الشاملة . ولكن المصائب التي حلت بقومه وسارت بها الاخبار وتحدث عنها الركبان عمقت نفسه وأفسحت خياله وحركت فيه عواطف الحقد والكراهة من ناحية ولكنها من ناحية اخرى أطلت به على جانب من جوانب الحياة الشعرية لان ما رآه من تقلب الحظ وتداول الايام وما قاساه من الآلام بصره رواية الحياة البشرية في فصولها المختلفة وجعله يعرف الشقاء ويحس الألم ، فمن رقيق شعره تلك الايات التي ارسلها الى اخته بالشأم ويقول فيها

أيها الراكب الميمم أرضي	اقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما تراه بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنــــا	وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الدهر بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وأبصر نخلة بالرصافة فارتسم له خيال نشأته وتمثلت له اوقات صفائه ومجالس اترابه وسالف ملاعبه فحن الى عهوده الماضية وجرت قريحته بهذه الايات : —

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول ابتعادي عن بني وعن اهلي
نشأت بأرض انت فيها غريبـــة	فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي	يسح ويستمري السماكين بالوبل

وينسب اليه بعض المؤرخين الابيات الآتية ويعزوها بعضهم الى عبد الملك بن عمر المرواني ولكنها اشبه بالشعر المنسوب للداخل

يا نخل انت فريدة مثلي — في الارض نائية عن الاهل
تبكي وهل تبكي مكممة — عجماء لم تجبل على جبل
ولو انها عقلت اذن لبكت — ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت واخرجني — بغضى بني العباس عن اهلي

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من اعانه انهُ قال « لولا انا ما توصل لهذا الملك ولكان منهُ ابعد من العيوق » وان آخر قال « سعده اعانه لا عقله وتدبيره » فاخذتهُ عزة الغلبة ونظم هذه الابيات : —

لا يلف ممتن علينا قائل — لولاي ما ملك الانام الداخل
سعدي وحزمي والمهند والقنا — ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب — نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألاَّ يغفلوا — أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله — خير السعادة ما حماها العاقل
أبني امية قد جبرنا صدعكم — بالغرب رغماً والسعود قبائل
ما دام من نسلي امام قائم — فالملك فيكم ثابت متواصل

وحكى ابن حيان ان جماعة من القادمين عليه من قبل الشأم حدثوه يوماً في بعض مجالسهم عنده ما كان من الغمر بن يزيد بن عبد الملك أيام محنتهم وكلامه لعبد الله ابن علي بن عبدالله بن عباس الساطي بهم وقد حضروا رواقه وفيه وجوه المسودة من دعاة القوم وشيعتهم راداً على عبد الله فيما أراقهُ من دماء بني امية وسلبهم والبراءة منهم

فلم تردعه هيبته وعصف ريحه واحتفال جمعه عن معارضته والرد عليه بتفضيله لاهل بيته والذب عنهم وانه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله واغضبهُ وأغصهُ بريقه وعاجل الغمر بالحتف فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام وكثر القوم في تعظيم ذلك فلم يسترح الامير عبد الرحمن لهذا الافراط في امتداح الغمر وكأنهُ احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منهُ في الذهاب بنفسهِ عن الاذعان لعدوهم والانف من طاعتهم والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الاسلام لتجديد عهدهم الدارس وقام عن مجلسه وصاغ هذه الابيات بديهة : —

شتان من قام ذا امتعاض فرَّ ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتاً لعزم مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشقَّ بحراً ولم يكن في الانام كلا
فبزَّ ملكاً وشاد عزًّا ومنبراً للخطاب فصلا
وجنّد الجند حين أودى ومصّر المصر حين أخلى
ثم دعا اهله جميعاً حيث انتأوا ان هلمَّ اهلا
فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
فنال امناً ونال شبعاً ونال مالاً ونال اهلا
ألم يكن حق ذا على ذا اعظم من منعم ومولى

وكان خارجاً الى الثغر في بعض غزواته فوقعت غرانيق في جانب من عسكره واتاه بعض من كان يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها ويشهيه بها ويحضه على اصطيادها فأطرق عنه ثم جاوبه : —

دعني وصيد وقع الغرانق فان همي في اصطياد المارق

في نفق ان كان او في حالق | اذا التظت هواجر الطرائق
كان لفاعي ظل بند خافق | غنيت عن روض وقصر شاهق
بالقفر والابطان في السرادق | فقل لمن نام على النمارق
ان العلى شدت بهم طارق | فاركب اليها ثبج المضائق
او لا فأنت أرذل الخلائق

ومن شعره في حيوة بن ملامس الحضرمي من جند حمص النازلين اشبيلية وكان صديق عبد الرحمن ولهُ في نفسه منزلة ثم ثار عليه بعد ذلك وقتل في الثورة

فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها | اذا غاب عنها حيوة بن ملامس
اخو السيف قاري الضيف حقاً يراهما | عليه ونافي الضيم عن كل بائس

وكانت قدرته في الخطابة لا تقل عن براعته في الشعر ، فقد حكى ابن حيان ان عبد الرحمن لما أذعن له يوسف صاحب الاندلس واستقر ملكه استحضر الوفود الى قرطبة فانثالوا عليه ووالى القعود لهم في قصره عدة ايام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم وذلك بعد ان كساهم واطعمهم ووصلهم فانصرفوا عنهُ مجبورين مغتبطين يتدارسون كلامه ويتهاقتون بشكره ويتهانؤون بنعمة الله تعالى عليهم فيه، وفي بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه فقال « يا ابن الخلائف الراشدين والسادة الاكرمين ، اليك فررت وبك عذت من زمن ظلوم ودهر غشوم قلل المال وكثر العيال وشعث الحال فصير الى نداك المآل وانت ولي الحمد والمجد والمرجو للرفد » فقال له عبد الرحمن مسرعاً « قد سمعنا مقالتك وقضينا حاجتك وامرنا بعونك على دهرك على كرهنا لسوء مقامك فلا تعودن ولا سواك لمثله من اراقة ماء وجهك بتصريح المسئلة والالحاف في الطلبة واذا ألمَّ بك خطب او حزبك امر فارفعهُ

الينا في رقعة لا تعدوك كما أستر عليك خانك وأكف شمات العدو عنك بعد رفعك لها الى مالـكك ومالـكنا عز وجهه باخلاص الدعاء وصدق النية » وامر له بجائزة حسنة وخرج الناس يتعجبون منه ومن حسن منطقه وبراعة أدبه وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه »

ومن جوامع كلمه قوله لما أنحى اصحابه على اصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم في معركة صحراء الصاره « لا تستأصلوا شأفة اعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لاشد عداوة منهم » يشير الى استبقائهم ليستعان بهم على اعداء الدين، ولما اشتد الكرب بين يديه يوم الصارة ورأى شدة مقاساة اصحابه قال لهم « هذا اليوم هو اس ما يبنى عليه اما ذل الدهر واما عز الدهر فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية اعماركم فيما تشتهون »

وكان عبد الرحمن مجود النثر بارع الترسل ، روى ابن حيان انهُ وقع الى سليمان ابن يقظان الاعرابي على كتاب منهُ سلك به سبيل الخداع « اما بعد فدعني من معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق لتمدن يداً الى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة او لازوين بنانها عن رصف المعصية نكالاً بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد »

وكان عبد الرحمن لشغفه بالادب وتضلعه من فنونه يتخذ الثقافة الادبية معياراً لقيمة الاشخاص، فقد كان كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام فيذكر له ان هشاماً اذا حضر مجلساً امتلأ ادباً وتاريخاً وذكراً لامور الحرب ومواقف الابطال وما شابه ذلك واذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان ، وقال يوماً لهشام لمن هذا الشعر

وتعرف فيه من ابيه شمائلاً ومن خاله او من يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع برّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا اذا صحا واذا سكر

فقال له هشام « يا سيدي لامرىء القيس ملك كنده وكأنه قاله في الامير اعزه الله » فضمه اليه استحساناً بما سمع منه وأمر له باحسان كثير وزاد في عينه ، ثم قال لسليمان على انفراد لمن هذا الشعر وأنشده البيتين فقال « لعلهما لاحد أجلاف العرب أمالي شغل غير حفظ أقوال بعض الاعراب » فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية وكان ذلك من أقوى الاسباب التي جعلته يتخطى ابنه سليمان بكر أولاده ويرشح ابنه هشاماً للولاية بعده وهو أصغر من سليمان سناً وقد وضع هذا الامير المثقف الفني النزعة أساس نهضة الادب بالاندلس ووثبة التفكير الفلسفي بها وكان يقرّب منه الشعراء فتحثهم عنايته بهم على المباراة في السبق والاجادة ، وكان ابو المخشي شاعر الاندلس في أيامه مدح سليمان ابنه بشعر وتوهم عليه فيه انه عرض بهشام أخيه وكانت بينهما مباعدة ومنافسة فتعصب متعصب لهشام فسمل عينيه فقال في العمى شعراً حسناً ثم قصد به عبد الرحمن فأنشده اياه فرق له واستعبر ودعا بألفي دينار فأعطاه وضاعف له دية العينين وهو الشعر الذي في أوله

خضعت أم بناتي للعدى	ان قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريراً انما	مشيه في الارض لمس بالعصا
فاستكانت ثم قالت قولة	وهي حرّى بلغت مني المدى
ففؤادي قرح من قولها	ما من الادواء داء كالعمى

وكان عبد الرحمن يغمر عاصمته بشآبيب كرمه ويسبغ عليها ضافي رعايته وكان بها فخوراً مدلاً فعمل على تجميلها وتنضير نواحيها فابتنى بها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام واتخذ لها قصراً رفيع العماد عالي الشرفات يرى المطل من ذراه المناظر على مسافات شاسعة ، ودحا حوله الحدائق الغلب والبساتين المزهرة ، ونثر الدوح المورق

والسرح الباسق وأجرى الجداول المترقرقة ونقل اليها غرائب الغروس وكرائم الشجر ونوافح الازهار من كل جهة وغرس بيده فيها نخلة أحضرها من الشام ليستعيد ذكرى نشأته ومدرج طفولته فكانت أول نخلة غرست في أرض اسبانيا، وبنى المسجد الجامع وأنفق فيه ثمانين الف دينار ومات قبل تمامه وفي بنائه جامع قرطبة يقول أحد الشعراء

وأبرز في ذات الاله ووجهه ثمانين ألفاً من لجين وعسجد

وأنفقها في مسجد زانهُ التقى وقرَّ بهِ دين النبي محمد

ترى الذهب الوهاج بين سموكه يلوح كلمح البارق المتوقد

وكانت النزعة الفنية المستولية عليه تحثهُ على استحداث المنشآت الاصلاحية فأعاد تمهيد الطرق الرومانية تيسيراً للمواصلات ونظم البريد السريع وبنى دار لصك العملة وقسم شبه الجزيرة ستة أقسام لكل قسم منها حاكم عسكري يعينهُ واليان وستة من المستشارين لادارة الشؤون الاقل في الاهمية يساعدهم على أداء ذلك رهط من القضاة وجماعة من الكتاب وكانوا يرسلون التقارير عن الحوادث والماجريات الى ديوان قرطبة .

تقويم وتقدير

عزيمة عبد الرحمن — وصف سياسته — تقدير المنصور لعبد الرحمن — وصف المؤرخ ابن حيان لعبد الرحمن — تأثير عمله

عبد الرحمن الداخل من الاشخاص النوادر الذين فرضوا ارادتهم على عصرهم وصبغوه بلونهم وصقلوه بصقالهم ، ولم يكن عبد الرحمن صاحب سحر ولارب معجزات وانما كان رجلاً جلد الجوارح متسعر الاعصاب دائم التشمير والكدح ، لا يستنزل النصر من السماء ولا يستعين عليه بما وراء الطبيعة وانما يستخرجهُ من هذه الارض العجوز ، فهو يعمل في الحديد والخشب والاحجار لا يتطرق اليه ضعف ولا يدركه وهن وهو في مضائهِ كالعوامل الطبيعية في صمتها وحتمها ، ومثل هذا الرجل الحديدي الارادة الصبور على ما لا يحتمله الناس تتضامن له المفارق وتتراجع امامه العقبات وهو يمضي في طريقه قدماً علماً بغايته عارفاً بوسائله لا تتنازعهُ الوساوس ولا تضل حكمه النزهات ولا يتحيف رأيه الاسراع ، يقدم الرأي على الشجاعة ويرسم الخطة قبل الاقدام ويضحي في سبيل تحقيق اغراضه بكل شيء فلا المال ولا الرجال ولا العواطف تقف في سبيله ، وهو لا يبالي بهناءة العيش ورغد الحياة لان المجد احب الى نفسه من الحياة ونعيمها فالحياة عنده ليس اساسها « الرغبة في الحياة » كما يقول شوبنهاور وانما اساسها « طلب القوة » كما يرى نيتشه ، وهو لا يحب ان تسيطر عليه

الحوادث وتصرفهُ الاقدار وانما يحاول ان يعلو فوق عبابها ويملك عنانها

ومن السهل ان تنعي على عبد الرحمن سياسته وان تتخطى رقاب القرون وترفع حجب الاعوام لتوجه اليه اللوم والتثريب على ما اظهر من قسوة وجبروت ، ولعلَّ الاصعب من ذلك والادق هو ان تصور الظروف القاسية التي أحاطت به والمواقف الحرجة التي عرضت له ، ولم يكن عبد الرحمن زاهداً في الحياة كارهاً للدنيا « صوَّام هاجرة قوَّام ديجور » حتى ينفض يده من مشكلاتها التي لا تحل الا بمقارفة الشر والتسور على الجريمة ويأوي الى صومعة يستمتع بلذة الصوم ومحاسن الزهادة ويجهد للوصول الى « النرفانة » حيث تهدأ الاشواق وتمحى الرغبات وانما كان امويًّا من فرعه الى قدمه يريد الدنيا ويحرص على النجاح والغلبة بالشجاعة او بالحيلة او بكليهما وقد علمتهُ طول خبرته بأحوال العرب والبربر ان كبرياء ابناء الصحراء والخلوات الفيح لا تلائم ما يستلزمهُ الملك من السلطة المستقرة المركزة والمكانة الوطيدة فلم يتردد في ان يقطع بصارمه البتَّار كل يد تمتد الى ملكه بسوء ويخمد كل نزوع الى الحرية وكوَّن لذلك جيشاً نظاميًّا من الموالي المجلوبة من أسواق الرقيق ومن البربر الذين اصطنعهم ليسترفده في الشدَّة ويلوذ به عند انتقاض الرعية ، وكانت سياستهُ المترددة بين القسوة والشدَّة والخيانة والغدر ملائمة لاحوال عصره ، وكان التحدي الدائم لسلطته يوقظ عقاربه الراقدة ويستوجب منهُ الصرامة ويستنزل النقمة ، وكان موقفه بعد اخماد الثورات الكثيرة وسحق قوة المتألبين عليهِ الساعين في هدمه يغري بالامعان في القسوة والاسترسال في الاستبداد ، ولم يكن عبد الرحمن بطبيعته مستبدًّا لانهُ رجل سامي المدارك واسع مدى التفكير عالي الثقافة ، فلما فرضت عليه الظروف الاستبداد فرضاً لم يكن استبداده من ذات النوع الاصم القائم على الغلظة والجلافة او من ذلك النوع

الاجوف القائم على انتكاس الطبيعة والتواء الخلق او نخب القلب والشعور بالنقص والعجز وانما كان استبداد الرجل السديد الرأي القوي النحيزة الذي يفهم الامور على حقيقتها ويحاول ان يكيف سياسته وفق مقتضياتها ويركب الشر اذا لم يجد عنهُ محيصاً ،وقد كان هذا المظهر الخشن الذي اضطرَّ عبد الرحمن الى الظهور بهِ في حياته العامة يبدو متناقضاً التناقض كله مع مظهره في حياته الخاصة،فقد كان في علاقاته الخاصة رقيق العاطفة شفاف الاحساس محمود الملابسة لاصدقائه لا يزدهيه النصر ولا يسكره الاقتدار ولا تميل به الخيلاء والعجب . فلما وفد عليهِ وانسوس البربري مع امرأته تكفات التي خبأتهُ في ثيابها لما كانت تطارده جنود ابن حبيب ، أكرم وفادتهما وكان يطيب له وهو في قمة سلطانه ان يجاذب تكفات البربرية الساذجة الحديث ويتسع صدره لنكاتها اللاذعة

وكان في أول حكمه يخالط رعيته ويسير في الطرقات ويتنقل في أطراف البلاد ليرى بنفسهِ حاجة شعبه ويفيض خلال ذلك بره على المحاويج ، ولكنهُ لما استولى عليهِ سوء الظن لزم قصره ولم يكن يبرحهُ الا محفوفاً بالحرس . وقد غيرت الاحوال الى حد كبير أخلاق عبد الرحمن الذي كان بطبيعتهِ كبير القلب جم العطف . ولا نزاع في ان مصرع أسرته والعداوة الشديدة التي كان يضمرها له أعداؤه وخيانة أقاربه ونكوص أصدقائه عن مناصرته وارتيابه في ولائهم له جعلتهُ يرتكب ضروباً من القسوة فلّت من بهائه وشوّهت من صورته مع ما تحمله في ثناياها من مسوغاتها ، ولو ان عبد الرحمن واجه أحوالاً سمحة لينة وقوماً ديدنهم الطاعة والخضوع للنظام لكان له موقف آخر، على ان عبد الرحمن رغم استبداده وطغيانه وخرقه القوانين في بعض الاوقات كان مستعداً للنظر في شكاوى المظلومين ورفع الظلامة عنهم . وكان على استبداده لا يأنف من الرجوع الى الحق واستماع النصيحة

روى عنهُ ابن القوطية انهُ أمر بقبض ضياع أرطباس — أحد أبناء غيطشة الثلاثة — وأوجب ذلك انهُ نظر الى قبته يوماً في بعض غزواته معهُ وحولها من الهدايا غير قليل اذ كانت الهدايا تتلقاه في كل محلة من ضياعه ، فنفس ذلك عليه فقبضت منهُ وصار عند بني أخيه حتى ساءت حاله فقصد قرطبة وأتى الى الحاجب ابن بخت فقال له « استأذن لي على الامير فإني اتيتهُ لأتودع منه » ، فدخل الحاجب فاستأذن لهُ فأدخله عبد الرحمن على نفسه فنظر اليهِ في هيئة رثة فقال لهُ « يا أرطباس ما بلغ بك هاهنا » فقال له « أنت بلغت بي ها هنا حلت بيني وبين ضياعي وخالفت عهود اجدادك فيَّ بلا ذنب يوجب ذلك عليَّ » فقال لهُ « وما هذا التوديع الذي تريد ان تتودع مني أظنك تريد التوجه الى رومة » قال « لا ولكني بلغني أنك تريد التوجه الى الشأم » فقال لهُ عبد الرحمن « ومن يتركني ارجع اليها وبالسيف أخرجت عنها » فقال لهُ أرطباس « فهذا الموضع الذي أنت فيهِ تريد ان توطده لولدك بعدك أم تأخذ منهُ ما اتخذ لك » ؟ قال « لا والله ما أريد الاَّ ان أوطده لنفسي ولولدي » فقال أرطباس « فغير هذا العمل اعمل فيهِ » ثم عرَّفهُ بأشياء كان الناس ينكرونها عليهِ وبينها له فسرَّ بذلك عبد الرحمن وشكره عليهِ وأمر لهُ بعشرين ضيعة من ضياعه صرفت اليهِ وكساه ووصله وولاه القماسة وكان أول قومس بالاندلس .

وقد علَّم عبد الرحمن أولاده أحسن تعليم وأنشأهم نشأة صالحة وكان يجبرهم على حضور الديوان لمشاهدة الاحوال وفهم دقائق الامور وكان يوكل اليهم عقد المعاهدات وادارة شؤون الحكم ، وقد عبَّد الطريق لابنائهِ ولكنهُ كان طريقاً حافلاً بالشوك محفوفاً بالاحزان والفواجع ، وليس في وسع اميران يحكم قوماً مثل العرب والبربر في عهد عبد الرحمن بغير ذلك الاسلوب القاسي الذي اتبعهُ مرغماً لانهُ كان عليهِ ان يختار

بين الاستبداد والشدة وبين الفوضى والثورة ، وربما كان الاكثر ملاءمة لمزاج العرب وغرائز البربر هو ان يتكوّن من القبائل المختلفة في ذلك الوقت شبه جمهوريات كثيرة تتحد عند الحاجة ضد العدو المشترك وهم المسيحيون في الشمال لان هذه الصورة من صور الحكم أكثر تمشياً مع تقاليد الصحراء كما رأى دوزي ، ولكن مع تقديري لرأي هذا المؤرخ الكبير أرى ان ذلك لم يكن كافياً لحل العقدة وفض المشكل ، بل كان يفسح المجال لانطلاق الاهواء العارمة والغرائز الجامحة وما يستتبعهُ ذلك من فناء قريب محقق كالحالة السيئة التي استنقذ عبد الرحمن منها الاندلس ومثل الحالة التي ارتدت اليها بعد انهيار الخلافة الاموية وظهور ملوك الطوائف ، فالمشكلة التي تناول حلها عبد الرحمن على طريقته أرجح اننا بعد ان نزن ظروفه ونقدرها من جميع نواحيها تقديراً دقيقاً لا نستطيع ان نتعالم عليهِ في ثقة واطمئنان ونهجن خطته ونفيّل رأيه ونرميه بالخطل وسوء التدبير

وكان عبد الرحمن في اول ولايته يدعو في خطبة الجمعة لابي جعفر المنصور ولم يثنه عن ذلك ما صنعهُ العباسيون بقومهِ لانهُ كان يعتبر ذلك ضرورة سياسية ، ولما مضى الى الاندلس عبد الملك بن عمر المرواني اشار عليهِ بقطع اسمه من الخطبة وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني امية فتوقف عبد الرحمن في ذلك فما زال بهِ عبد الملك حتى قطع الدعاء له بعد ان خطب باسمه عشرة اشهر ، ومما يكشف عن رجاحة عقل عبد الرحمن انهُ ظلَّ مع ذلك محتفظاً بلقب امير ولم يتطاول الى لقب امير المؤمنين وعليهِ جرى بنوه بعده فلم يدع احد منهم بأمير المؤمنين حتى كان عبد الرحمن الناصر فتسمى بالخلافة ، ولم يقدم على ذلك عبد الرحمن وهو ابن الخلفاء لعلمهِ ان كثيراً من الزعماء الذين يترقبون به الدوائر ويتحينون الفرص للوثوب عليه سيتخذون ذلك ذريعة لاثارة

شعور الشعب وايقاظ راقد الفتنة ، وفضلاً عن ذلك فان الخلافة العباسية كانت في ذلك الوقت وثيقة البنيان وقد اعترف بها المسلمون جميعهم وخليفة رسول الله واحد لا اثنان. وماذا يضير عبد الرحمن حرمانه من هذا اللقب وفي يده زمام الامور واقليد السلطة. ولم يكن الرجل حريصاً على الالقاب والشعائر لانهُ رجل حقائق موكل بالالباب زاهد في القشور ، ولم يتسم من عقبه الناصر بأمير المؤمنين الاّ حين التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبدّ موالي الترك بخلفاء بني العباس وبلغهُ ان الخليفة المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه وتوارث التلقب بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد

وقد تحدّى عبد الرحمن رجلان عظيمان من معاصريه خضع لسلطانهما العالم القديم وهما ابو جعفر المنصور وشارلمان فثبت لهما عبد الرحمن ولم يفوزا منهُ بطائل وقد أرغمهما عبد الرحمن على تقديره والاعجاب به والثناء عليه . فقد روى عن أبي جعفر المنصور انهُ سأل اصحابه يوماً « مَن صقر قريش » ؟ قالوا « أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء » قال « ما صنعتم شيئاً » قالوا « فمعاوية » قال « ولا هذا » قالوا « فعبد الملك بن مروان » قال « لا » قالوا « فمن يا أمير المؤمنين » قال « عبد الرحمن بن معاوية الذي تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف يعبر القفر ويركب البحر حتى دخل بلداً أعجميًا فمصّر الامصار وجنّد الاجناد وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه، ان معاوية نهض بمركب حملهُ عليه عمر وعثمان وذللا صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقدمت له وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرداً بنفسه مؤيداً برأيه مستصحباً لعزمه ، فلا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة اسبابه فالشأن في امر فتى قريش

الاحوذي الفذ في جميع شؤونه وعدمه لاهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك يبعد مرتقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف بنفسه في لجج المهالك لابتناء مجده »

وروى ابن حيان ان قارلة — شارلمان — ملك الافرنج بعد ان تمرس بعبد الرحمن مدة فأصابه صلب المكسر فمال معه الى المداراة ودعاهُ الى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة لما انتاب صحته من ضعف في أواخر أيامه

وقد وصفهُ مؤرخ الاندلس الكبير ابن حيان بهذه الكلمات القوية الغزيرة الدلالة «كان عبد الرحمن راجح الحلم فاسح العلم ثاقب الفهم كثير الحزم نافذ العزم بريئاً من العجز سريع النهضة متصل الحركة شديد الحذر قليل الطمأنينة لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة لم ترفع له قط راية على عدوّ الاّ هزمهُ ولا بلد الاّ فتحهُ شجاعاً مقداماً لا يكل الامور الى غيره ثم لا ينفرد في ابرامها برأيه بعيد الغور شديد الحدة بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سمحاً سخيًّا وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره»

ووصف سياسته وتأثيره هذا الوصف الدقيق الجامع « لما ألفى الداخل الاندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية واخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة وبدأ فدوّن الدواوين ورفع الاواوين وفرض الاعطية وعقد الالوية وجنّد الاجناد ورفع العماد وأوثق الاوتاد فأقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته فاعترف له بذلك اكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ولم يلبث ان دانت له بلاد الاندلس واستقل له الامر فيها »

ولعلّ اكبر أثر تركه عبد الرحمن هو أنهُ باصلاحه السياسي مهد السبيل للنهضة الادبية وتلك اليقظة الفكرية العظيمة التي ظهرت بالاندلس حتى صارت مدينة قرطبة

توقد سراج العلم والحضارة فتنير الدنيا واوربا غارقة في لجج زاخرة من الجهالة وحتى صارت الاندلس مدرسة يؤمها الاوربيون لتلقي مختلف العلوم عن العرب ولولا مجهود عبد الرحمن لما أتيح المسلمين مواصلة البقاء بالاندلس لمدة قرون ، فليذكر الذين يعجبهم ادب الاندلس وعلم الاندلسيين وحضارتهم ان اكبر فضل في ذلك كله يرجع الى عبقرية عبد الرحمن المبدعة الخلاقة، و لئن كان عبدالرحمن قد استباح الشدة واقترف الآثام فقد يكون له شفيع في ضخامة الغاية التي رمى اليها وما نشأ عنها من خير عميم للحضارة والعرفان وقد يخفف من لومنا لهُ ان رحلته الدنيوية القصيرة الالاقة المظهر المتوجة بأكاليل النجاح كانت في صميمها مأساة مثل حياة سائر العظماء ورجال القدر الذين زاروا الكون ومروا بالأرض »

ثبت المراجع

أخبار مجموعة في فتح الاندلس طبع مجريط سنة ١٨٦٧
نفح الطيب : للمقري المجلد الاول والثاني طبع مصر سنة ١٣٠٢
البيان المغرب : لابن عذارى
افتتاح الاندلس : لابن القوطية
المعجب في تلخيص أخبار المغرب : للمراكشي
الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى : للسلاوي
تاريخ العرب في أسبانيا : لدياب بك
تاريخ العرب في أسبانيا : للاستاذ محمد عبد الله عنان
تاريخ العرب في الاندلس : للاستاذ حسن مراد
الدولة الاموية في قرطبة : للاستاذ أنيس زكريا النصولي
نظرات في تاريخ الادب الاندلسي : للاستاذ كامل كيلاني

Spanish Islam. By Reinhart Dozy
The Moors in Spain. By S. Lane Poole.
The Moorish Empire in Spain. By Scott.

تصويب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٨	١٢	للتأثيرات	التأثيرات
٣٨	٢٠	يستجيبهم	يستجيشهم
٣٩	١٥	أبا عطاء	أبو عطاء
٤٨	٤	وامتزج	وامترج
٥٦	٣	النعير	التعير
٦١	٩	وشائج	وشائج
٦١	١٤	قبلا	قبّلا

فهرست

